

الله جمهورية حزب

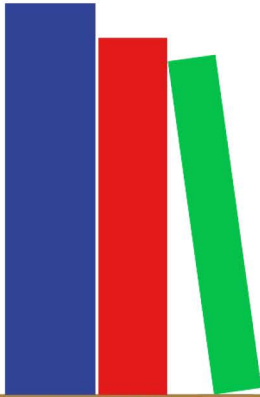
جمهورية حزب الله

للكتابة والصحافية رفائلا أنجلينو
والكاتب والصحافي ماوريتسيو موسولينو

Dar Alwala

Lebanon - Beirut



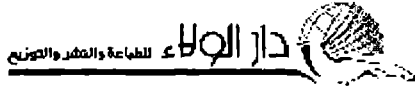


مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في تكفة الأخرى لرجح إيمانه.
(الإمام الصادق ع)

moamenquraish.blogspot.com

جمہور حزب اللہ



Dar Alwalaa

Lebanon - Beirut- Hart Hraak - Dakash st. - Fadlallah
Fax: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - Box: 307/ 25

E - mail: daralwalaa@yahoo.com



الكتاب: جمهور حزب الله
للكاتبة والصحافية رفايلا أنجلينو
والكاتب والصحافي ماوريتسيو موسولينو
الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة: الأولى. بيروت 2008م. 1429هـ

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

جمهور حزب الله

للكتابة والصحافية رفاثلا أنجلينو
والكاتب والصحافي ماوريتسيو موسولينو

Dar Alwalaa

Lebanon - Beirut

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المقدمة: بقلم مانويلا باليرمي

بعد أيام قليلة من توقف الحرب، رفّأئلا أنجلينو وماوريتسيو موسولينو يعودان الى أماكن يعرفانها. ليست مُجرد رحلة، بل البحث عن أماكن وذكريات وأشخاص يُمكن أن يكون العنف الإسرائيلي قد دمرها أو قتلهم. بين الجرافات والبلدوزرات والأنقاض كان اللقاء الأول بالإعتزاز والفخر الذين يسموان على وجوه الناس. لقد صمد حزب الله، وبدأ عملية إعادة إعمار لبنان، يساعد الناس، ويُقدم لهم المال لتأمين - بيت لهم. حزب الله الذي أرادت إسرائيل إبادة يحتفل اليوم بين الناس ومع الناس «بالنصر الإلهي».

في لبنان مدينة اسمها الغبيري حيث الخدمات والأنشطة متوفرة وفعالة ورئيس بلديتها من حزب الله. الخدمة الصحية متوفرة كذلك المدارس. وهناك أيضا مخيم شاتيلا، حيث يعيش الفلسطينيون ويتزوجون ويتناسلون في نفس المكان وعلى نفس المساحة: يعيشون في ازدحام وفي مكان ضيق لا يسعهم، البيوت يمكن ان تكبر وتتوسع فقط عمودياً، الشوارع ترابية مليئة بالمواخير والمجاري، الرغبة

والإرادة في الإتصال والتواصل مع العالم كما هو الحال في بلاد الشرق الأوسط، تمر عبر مجموعة لانهاية لها من سوارى (أنتينات) الأقمار الإصطناعية «الساتالايت» المنصوية على أسطح المخيم.

تبدأ رحلة أنجيلينو وموسولينو من هناك من الغبيري حيث يتواجد حزب الله «الوجه السلمي والإنساني للحركة الشيوعية». سرعان ما يدرك كلاهما أنّ الحرب الإسرائيلية أحدثت تغييرا في لبنان. هذا البلد المليء بالتناقضات، والأناية، والفردية، والقوميات، واللغات العديدة، والديانات المختلفة، والثقافة، والتنازعات الكثيرة، البلد المدمر والمهزوم، لبنان الذي اكتشف بعد الحرب الوحدة الوطنية والتضامن. لبنان الذي يغمره الشعور بالفخر والإعتزاز وهما ميزة وشيمة للمنتصرين وليس للمهزومين.

ها هي أبهة وكبرياء شركة طيران الشرق الأوسط،، بمجلتها الملونة وبعنوانها الكبير «البلد الذي لا يُهزم»، يعلوها علم كبير للبنان؛ وها هو إعتزاز وافتخار طلال سلمان، مدير جريدة السفير، المفكر المحبوب جدا في لبنان، حيث لم تنقطع جريدته يوما واحداً عن الصدور طيلة فترة الحرب؛ وها هو إعتزاز وافتخار الفلسطينيين الذين فتحو أبواب مخيماتهم للنازحين اللبنانيين ووزعوا عليهم الخبز؛ وها هي أيضاً الأحزاب الفخورة بنفسها والمتحاربة تضع خلافاتها ومشاحناتها جانباً وتختار الوحدة الوطنية؛ وها هو أيضاً

النائب العربي في الكنيست الإسرائيلي الذي يفاجيء ويدهش الجميع بمشاركته في مظاهرة يتواجد فيها حزب الله.

الإعتزاز بالنصر يخيم على كل شيء، ويعيد الثقة، لأنه غير الكثير في العلاقات مع الدول العربية الأخرى: لبنان هزم إسرائيل. اليوم وقت العمل وإعادة الإعمار.

أيضاً الليالي تغيرت في لبنان. كانت الليالي في بلد الأرز طويلة. النقاشات المولعة والمُشوّقة كانت تستمر طيلة الليل. كانت مليئة بالطرب والفرح والشرب والرقص. الآن الساحات والشوارع خالية والمحلات تُغلق أبوابها باكراً. هنا وقعت 9000 (تسعة آلاف) غارة جوية، الصواريخ الموجهة بالرادارات كانت تدمر كل شيء يتحرك، الجثث المشوهة من القنابل، البيوت المهدمة عن بكرة أبيها، الشوارع المليئة بالأنقاض، الأشخاص الناجون من القصف البشع كأنهم أشباح يبحثون عما تبقى من بيوتهم والغبار الأبيض يعلو وجوههم. شعور الإعتزاز والفخر عالٍ جداً لكن البهجة والبسمة اختفت عن وجوههم. إنني أعرف لبنان لكن ليس من السهل التحدث عنه. غير أنّ هذا الكتاب نجح في ذلك. لأنه يفسح المجال للبنان ليحكى قصته بنفسه، بصوره وألوانه وروائحه. بعاصمته بيروت التي قُصفت من جديد كما حدث عام 1982 وعام 1976. مدينة رائعة تمتد الى الأعلى، من البحر الى الهضاب والجبال، الى بناياتها المتزايدة والممتدة الى

مسافات طويلة، بيروت المدمرة والمدكوكة بلا القنابل. وبطريقة عجيبة تكشف بيروت عن واقع يتحرك ويتغير ويعيد تنظيم نفسه لتجد نفسها من جديد. حتى أنّ الماضي قد تغير. اليوم، الماروني يقول أنّ ياسر عرفات زعيم مُعترف به وهو ضحية إغتيال اسرائيلي. والمسيحي يقول أنّ حزب الله رفع من سمعة لبنان. وإغتيال الحريري وُضع جانباً رغم أنه كان قد قسم لبنان الى قسمين.

أنجيلينو وموسولينو يتركان اليونيفيل والقوات الإيطالية في الجنوب على الحدود بين الأهالي الذين تقبلوهم ويحترمونها. كل الإهتمام كان مصبوحاً على لبنان الذي يشهد عملية تغيير كبيرة، لبنان المقطعة أوصاله وجسوره. لم يبق جسر في بلد الأرز إلا وقد دُمّر. الجنون والهيجان الإسرائيليان دمرا كل الجسور واحدا تلو الآخر.

إنّه كتاب جيد يحكي باحترام ودون استعجال قصة بلد مُعتدى عليه. لبنان ذو الوضع المُعقد، ينهض كل مرة من محناته وأزماته وسينهض أيضا هذه المرة. المؤلفان لا يُخفيان شكوكهما ولا تخوفهما من المستقبل «بعد» العزة والفخر والتضامن التي شهدها لبنان مؤخراً. الإنقسامات قديمة العهد. ماذا سيحصل عندما تطفى الحياة اليومية على النصر؟ وإذا لم يتحقق السلام في هذه المنطقة وتستمر الأعمال الحربية؟ لا يوجد أيّ جواب على ذلك. أنجيلينو

وموسولينو لا يسألان هذا السؤال ولا يعطيان الإجابة عنه. يتحدثان عن تغير طراً على لبنان يحدوه أمل ضعيف وهش وغير أكيد يُمكن أن يتلاشى بسرعة أو يستقر. سيعمل لبنان الآن على إعادة بناء جسوره المدمرة، وتوصيل أجزائه المُقطعة وإعادة رسم صورته وتاريخه وألوانه.

هذا ما يتحدث عنه كتاب أنجيلينو وموسولينو. عن عملية إعادة إعمار صعبة ومُجهدة لشعب يبدو أنه يعيش مشكلة معقدة ومستعصية وكأنه أمسك برأس العصا المتعرجة والملتوية.

الفصل

في بيروت ما بعد الحرب

ليس من السهل الذهاب الى بلد عشية أن وضع الحرب أوزارها. فالمخاوف من احتدام الصراع واشتداد المعارك بالإضافة الى نصائح وتحذيرات الأهل والأصدقاء كانت غير مشجعة للذهاب هناك. إلا أنه من الطبيعي ان تكون الرغبة عند الصحفيين في التواجد داخل «الخبر» تغلب على ذلك وان كان كل همهم وقلقهم هو التحقق والتأكد بأن أعينهم مما تبقى من الأماكن التي زاروها مرات عديدة. لبنان ما بعد الحرب لا يستثنى من ذلك. لهذا قررنا العودة الى بلد «ذي خصوصية» وربما في الحقيقة لا توجد أي خصوصية معينة.

هذه المرة تبدأ الصعوبات من السفر: كيف سنذهب هناك؟ فإسرائيل، رغم مضي أسبوعين على وقف إطلاق النار لكنها حتى الآن لم ترفع الحصار الجوي والبحري الذي فرضته على لبنان بالرغم من وجود نص صريح وواضح بهذا الشأن في القرار الصادر عن مجلس الأمن رقم 1701. لهذا السبب لا توجد رحلات مباشرة من أوروبا الى بيروت. فالطائرات القليلة المتوجهة الى بيروت مجبرة

ومضطرة للهبوط في مطار عمان. يُعتقد ان هناك اتفاق شبه علني في هذا بين الحكومة الأردنية والإسرائيلية: السلطات الأردنية تقوم بالتفتيش والتدقيق الإضائي خلال الهبوط الفني في عمان بعدها تسمح إسرائيل للطائرات القادمة من عمان بالهبوط في مطار بيروت. والحل الآخر عن طريق رحلة مباشرة من إيطاليا الى دمشق ومن ثم الذهاب الى بيروت عن طريق البر. في هذه الحالة يجب الحصول على التأشيرة السورية واتخاذ قرار بذلك في اللحظة الأخيرة لم يكن مستحسناً. بالإضافة لصعوبة الوصول الى بيروت برأ نظرا للقصف الإسرائيلي الذي تسبب في تدمير كل الجسور والطرق. وأخيرا وبفضل الضغوط العالمية خاصة وللغرابية شركة الخطوط الجوية الإنجليزية التي قامت برحلة كسرت الحصار المضروب وبعدها أصبح مطار بيروت صالحاً لإستقبال الطائرات واستأنفت طائرات شركة الشرق الأوسط اللبنانية رحلاتها المباشرة من إيطاليا.

سافرنا من روما في يوم الإثنين من منتصف أيلول (سبتمبر) الساعة العاشرة والربع صباحا. كانت الرحلة الى بيروت طويلة نوعا ما لوجود هبوط فني في مطار ميلانو. الجو على متن الطائرة غير عادي. الناس يعودون الى بلدهم والأمل يملأ عيونهم في ان يجدوا احباءهم على قيد الحياة وممتلكاتهم سالمة غير مدمرة. عند

اندلاع الحرب نزح أكثر من مليون لبناني وبعده هذا رقما قياسيا اي ما يعادل ربع السكان. فقط الأغنياء هم الذين استطاعوا مغادرة لبنان خلال الحرب. في الطريق الى ميلانو كان الصمت سيد الموقف على متن الطائرة. كان لا يزال على متنها عدد كبير من اللبنانيين القادمين من بيروت والذين غادروها في الساعة السادسة وأربعين دقيقة صباحا.

خلال التوقف في مطار مالينسا في ميلانو ادركنا بوضوح أنّ هناك شيء جديد في هذه الرحلة. عادة ما تكون اغلبية المسافرين من إيطاليا الى لبنان من الطائفة المارونية. ورجال الكنيسة يشكلون النسبة العالية من المسافرين. وكذلك في هذه المرة، لكن الشيء الجديد انهم يتحدثون كثيرا ويثرثرون. يتحدثون معنا وكنا نذكرهم باستمرار بدوافع «مهمتنا» اي مهمة «لجنة عدم نسيان صبرا وشاتيلا». يبدو على متحدثينا أنهم أقل فتورا من المرات السابقة. بل على العكس نلاحظ من لمحات وجوه بعضهم ومن كلامهم نوعا من الود والإلفة. إنها المرة الأولى التي يحدث فيها شيء من هذا القبيل بعد سنوات عديدة من السفر الى بيروت.

عادةً، يمكن ملاحظة نوعا من الإنزعاج لدى الموارنة نحو «هؤلاء» الإيطاليين الذين يذهبون للبنان في ذكرى مذابح صبرا وشاتيلا والتي ستبقى وصمة عار في تاريخهم: تلك المجزرة، مجزرة

مخيمي صبرا وشاتيلا التي شارك فيها الجيش الإسرائيلي والتي أودت بحياة أكثر من ألفي فلسطيني من المدنيين العزل معظمهم من النساء والشيوخ والأطفال.

لكن هذه المرة الأمور تغيرت. يسألوننا عن رحلتنا وتعلو وجوههم الشعور بالفخر والإحساس بالوطنية. إنه من المستحيل عدم ربط ذلك بالأحداث المساوية والدرامية التي وقعت خلال الصيف وبالمقاومة اللبنانية الشرسة والعنيدة التي استطاعت خلال ثلاثة وثلاثين يوماً من الحرب ان تُسَمِّرَ وتُكَبِّلَ جيشاً يُعدّ من أقوى جيوش العالم. هذا الشعور الذي يتأكد من خلال تصفح المجلة التي تقدمها شركة طيران الشرق الأوسط للركاب. على غلاف المجلة توجد صورة للعلم اللبناني مكتوب عليه بالخط الأحمر «بلد لا يُهزم».

يحدثنا لبناني التقيناه في الطائرة يعيش في إيطاليا منذ سنتين ويعمل في شركة تابعة للفاتيكان أن عائلته تعيش في بيروت وحتى الآن بالرغم من انتهاء الحرب لم تعد الى بيتها. كانوا قد ذهبوا خلال القصف عند أقاربهم في الجبل قرب العاصمة بيروت وبقوا هناك. روى لنا ما حدثته أخته عن الأرق الذي يُعانون منه بسبب الغارات الإسرائيلية والقصف والإنفجارات وعدم امكانية التنقل والحركة بسبب تدمير الجسور وعدم توفر المحروقات. تبدو انها اخبار وقصص تعود لأيام سالفة وبعيدة، وبعدها بقليل يخبرنا كابتن

الطائرة اننا بدأنا الهبوط في مطار بيروت. العيون كلها مصوبة على نوافذ الطائرة.

بدأنا الهبوط. في الخارج الحر شديد والرطوبة عالية جدا. غادرنا إيطاليا والصيف في نهايته وفي بيروت يشير ميزان الحرارة الى 32 درجة مئوية. تقف الطائرة وتنزل منها. في المطار وبعد أن مشينا في ممر طويل وخال وصلنا بعد عدة دقائق الى الجمارك. عادة للدخول الى لبنان تلزم تأشيرة مؤقتة بخمسة عشر يورو تقريبا. نبحت عن دمغة لنلصقها على جواز السفر لكن احد المسؤولين في الشرطة أشار لنا ان نمضي قدما. الدخول مجاني «التأشيرة مجانية».

هذه مقدمة لما سنراه خارج المطار. قبل عدة شهور كان لبنان يواجه غزواً من نوع آخر. بعد الحرب الأهلية وبعد عقد من إعادة الإعمار، عاد بلد الأرز رغم الإغتيالات التي شهدها في السنتين الأخيرتين ومقتل رئيس الوزراء رفيق الحريري ليصبح القطب الأساسي للسياحة في منطقة الشرق الأوسط. الفنادق رغم كبرها وعددها لكنها لم تكن كافية. ضريبة الدخول كانت تبدو وكأنها تختمر الى ما لا نهاية الجاذبية المتزايدة للقطب السياحي. لكن المطار الحديث يبدو اليوم وكأنه شبح. المحلات التجارية مغلقة ووجود الجيش يجعل منه مكانا مختلفا عن المكان الذي كنا نعرفه والمليء بالضجيج والضوضاء. الشيء الإيجابي الوحيد هو سرعة

تسليمنا حقائبنا. تصل الحقائب على الشريط قبل وصولنا الى مكان «استلام الحقائب». نتوجه نحو بوابة الخروج. نحن الآن على مداخل بيروت.

بدأ الظلام يخيم وأصبح من الصعب مشاهدة آثار الحرب ونحن في الطريق الى بيروت. آثار ما بعد الحرب «تشهد» بعد مسافة صغيرة، على لوحات الدعاية الكبيرة المنتشرة على جوانب الطرقات. اللوحات مقسمة الى نوعين: الأول عبارة عن مشاهد من الحرب والثاني مكون من كلمتين فقط «النصر الإلهي». إنها دون اي توقيح واكتشفنا فيما بعد من هو وراء تلك الملصقات.

الطريق المؤدية الى وسط بيروت تمر في الضاحية الجنوبية للعاصمة ولا نشاهد بيوتا حولنا. بعد سنين طويلة من الحرب الأهلية حاولت عملية إعادة الإعمار بكل الوسائل ونجحت نوعا ما في ذلك باستعمال الشرايين الأساسية والطرق الرئيسية كسدود مانعة لا يمكن تجاوزها من أجل عزل الأحياء المسيحية عن تلك الإسلامية ومن ثم السنية عن الشيعية. الآن ومن خلال هذا الصف الطويل من السيارات وهذا الازدحام الشديد، ندرك أن شيئا ما قد تغير. يشرح لنا السائق أن الجسر الذي يوصلنا للمدينة قد دمرته القنابل الإسرائيلية. نسلك طريقا ترابية غير معبدة لتجاوز هذا الجزء المهدم. كل شيء في بيروت يبدو عاديا. أزمة السير المعتادة في

الساعة السادسة مساءً. نصل الى الفندق في شارع الحمراء الشارع التجاري في بيروت السنية لكن يتراود عليه الجميع. أيضا هنا لا نشاهد آثار الحرب. انقطع التيار الكهربائي بعد دقائق قليلة من وصولنا للفندق. لم يحصل هذا أبدا في الماضي. في الأيام التالية كانت المولدات الكهربائية المزعجة تشتغل عند انقطاع التيار. بعد ساعة من وصولنا كان لنا أول موعد مع طلال سلمان أحد المفكرين المحبوبين في لبنان. طلال سلمان يدير «السفير» وهي أهم جريدة عربية لبنانية. هذه الجريدة ذات روح وطنية وقومية عربية وتتباهى وتفتخر بأنها لم تنقطع عن الصدور يوما واحدا طيلة سنين الحرب الأهلية. يحدثنا طلال سلمان عن الحرب الإسرائيلية اللبنانية الأخيرة بتحليل دقيق دون تصنع.

يحدثنا طلال بصوت خفيف متحشرج نتيجة محاولة اغتياله قبل عدة سنوات التي تسببت بكسر فكه قائلاً: «إنّ الشعبين الفلسطيني واللبناني لهم نفس العدو الذي يقتل المدنيين ويدمر البيوت ويقطع الموارد الأساسية ليحرمهم من الحياة والبقاء». اليوم، ذاكرة العنف القديم تتعزز وتقوى مما حدث مؤخراً: لكل حرب جديدة لها ضحاياها لتبقى مسجلة في ذاكرتنا. «كما حدث في صبرا وشاتيلا هناك أماكن أخرى تحولت الى مسرح لمجازر رهيبه. حتى أن معسكر الإعتقال «الخيام» في جنوب لبنان تم تدميره بالكامل لأن اسرائيل

ارادت من ذلك أن تمحو رموز وآثار وحشيتها. يروي لنا طلال سلمان انه خلال ثلاثة وثلاثين يوماً من الحرب شنت اسرائيل أكثر من تسعة آلاف غارة جوية. وأطلق الجيش الإسرائيلي أيضاً صواريخ موجهة بالرادارات ضد كل شيء يتحرك بما فيه المدنيين. دمرتُ المدن وقرى عن بكرة أبيها ومات العديد من الأشخاص داخل بيوتهم التي رفضوا مغادرتها أو لم يتمكنوا من ذلك. لقد حاول زميل لنا من «السفير» لعدة أيام الوصول الى عائلته في الجنوب. عندما وصل الى هناك وجد جثث عشر نساء كبيرات في العمر مكومات على الأرض فوق بعضهن البعض من بينهن والدته. كن يردن تسلياً بعضهن البعض والبقاء معاً خلال القصف والحرب».

بعد السرد القاسي والمؤلم للحرب يدعونا مدير «السفير» أن نتأكد ونتحقق بأمر أعيننا ماذا جرى للبنان خلال الحرب الإسرائيلية الأخيرة. «عندما تتجولون في لبنان - يضيف - طلال سلمان - سترون آثار عدوانية الهجوم الإسرائيلي ومدى قوة المقاومة. المشهد الأول يبين حجم الدمار الذي خلفه العدوان الإسرائيلي ومدى العنف الذي استخدمته اسرائيل ضد شعب بكامله وكثافة القصف الذي تسبب بنزوح أكثر من مليون لبناني.

والمشهد الثاني الذي لا يمكن نسيانه يدل على روح الوحدة والتضامن التي تجلت بين الشعب اللبناني والأحسن من ذلك

المقاومة البطولية للبنانيين الذين عاشوا ثلاثة وثلاثين يوماً تحت القصف الإسرائيلي دون أي تقريط أو أي تراجع. لقد حقق شعب بلد الأرز نتيجة كانت من قبل غير واردة ومستحيلة: غيرت المعادلة التي كانت قائمة بين إسرائيل والعالم العربي».

- من وجهة نظر مدير صحيفة السفير - أرادت إسرائيل أن تستغل التناقضات الداخلية في لبنان، مستعملة كل الوسائل بما فيها المنشورات لتؤكد على أن الهدف من حربها هو فقط القضاء على حزب الله. في الحقيقة رغم تدمير البنية الاقتصادية اللبنانية إلا أن الجيش الإسرائيلي لم ينجح في تحقيق أهدافه. أما الشعب اللبناني فيكفيه فخراً أن يكون أول شعب عربي واجه إسرائيل لوحده وأنه قاوم دون أن يستسلم أو يقع في فخ الدعاية الإسرائيلية. وأنه ناضل للدفاع عن أرضه وبيته وعن وجوده. وتمخض عن ذلك تضامناً قوياً بين اللبنانيين أنفسهم وبين اللبنانيين والفلسطينيين الذين يعيشون على أرضنا.

من وجهة نظر المثقف اللبناني هناك مشهد تاريخي آخر من مشاهد حرب 2006 وهو فتح ابواب المخيمات الفلسطينية امام النازحين اللبنانيين. نلمح من كلمات مدير الجريدة ذلك «الفخر والإعتزاز» بالوحدة الوطنية التي سرعان ما لاحظناها خلال رحلتنا على متن الطائرة. طلال سلمان واثق من نفسه ويتقبل الحديث

أيضاً عن موضوع ساخن وهو تواجد القوات الدولية «اليونيفيل 2 المؤلفة من خمسة عشر الف جندي تحت قيادة الأمم المتحدة والتي ينبغي عليها بموجب القرار رقم 1701 مراقبة الجنوب اللبناني. يعتبر طلال سلمان أن القرار جاء لصالح إسرائيل وأيضاً لحفظ أمن لبنان. «بالتأكيد يمكنه ان يمنع تنظيم المقاومة لكننا نأمل أيضاً أن يكون قادراً على كشف القناع عن الأسباب التي تستدعي المقاومة، فبالفعل سلاح حزب الله هو سلاح دفاعي وليس هجوماً». نعم، لقد غزت إسرائيل لبنان.

«لكن طلال سلمان يُحذر ويقول أنه بغض النظر عن نوعية الدول المشاركة في اليونيفيل 2 فإننا نرحب بهذه القوات على ان تكون هناك يقظة ومراقبة مستمرة على طبيعة مهمتها. ويُحذر من خطر تغيير مهامها من قبل الولايات المتحدة. لأول مرة نسمع شكوكاً حول مهمة الأمم المتحدة أما في إيطاليا فلا انتقادات لها. بالتأكيد « القوات التي ارسلت الى العراق وأفغانستان هي قوات احتلال لأنها كانت انصياعاً لرغبة الولايات المتحدة. لقد سُنت الحرب على أفغانستان دون اي قرار صادر عن الأمم المتحدة. أما فيما يتعلق بالعراق فالقرار صدر بعد بداية الحرب من أجل إعطاء الشرعية للإحتلال. الفرق بينهما وبين المهمة في لبنان تحت أعين الجميع ولا تخفى على أحد. « قوات اليونيفيل تتحرك تحت إشراف الأمم المتحدة وهي قوات صديقة كما

كانت في أكثر من عقد من الزمن». لم يكن واضحاً إذا كان مدير الجريدة يصدقنا بالفعل أم لا. لقد خرج منه تعليق: ”بالفعل، إن خمسة عشر ألف جندي عدد كبير ولا نعرف أين نضعهم“. ابتسامة مرة تركت شكوكا وتساؤلات عدة. في المحصلة، إن العقدة الحقيقية ليست في عدد القوات الأجنبية ولكن في مسألة نزع سلاح حزب الله. ويضيف المدير قبل أن يتركنا - إنه حزب له امتداده القوي وجذوره المتأصلة بين الناس. ”يقاتلون هناك في أماكن ولادتهم وحيث تعيش عائلاتهم وذويهم وعلى أراضيهم“.

يعود النقاش من جديد حول حزب الله ومنذ الساعات الأولى في لبنان كان واضحاً وجلياً أنّ هذا الحزب لم يهزم كما حاول أن يزعم البعض.

قبل أن نذهب الى النوم قررنا الذهاب لشرب شيء في أحد الفنادق المشهورة في شارع الحمراء، المنطقة التي كنا نتردد عليها كلجنة في السنوات الماضية خلال زيارتنا وإقامتنا في لبنان. أيضاً هنا تركت الحرب آثاراً لها. الليالي في بيروت أصبحت أقصر من تلك التي اعتدنا عليها: حوالي الحادية عشرة والنصف ليلاً سلمنا النادل (الجرسون) فاتورة الحساب وطلب منا مغادرة المكان. ليس من المعتاد التمشي هنا في هذه المنطقة.

الفصل

في جحيم حارة حريك

وصلنا لبنان منذ بضع ساعات لكنها كافية لإستخلاص بعض الحقائق. المقاومة تتمتع برصيد جماهيري كبير وسمعة وكرامة عاليتين، لكن هناك خلف الزاوية تكمن مشاكل كثيرة، بداية من الجبهة الداخلية التي لظمت الصمت بسبب الغارات الإسرائيلية إلا أنها قابلة للإنفجار بكل تناقضاتها وانقساماتها في اية لحظة. بلد الأرز يؤكد صعوبة وإستحالة الحديث عنه أو ربطه بنماذج وأشكال تقليدية. الإنقسامات هنا تعود لأسباب تاريخية ودينية وأيضاً لتقاطعات وتشعبات دينية وسياسية.

التأكيد على ذلك يأتي من خلال اللقاء الصباحي الأول والمهم: مع رئيس الجمهورية المسيحي الماروني اميل لحود. للوصول الى القصر الجمهوري ينبغي علينا الخروج من وسط بيروت الذي تعمه الفوضى والإزدحام والصعود نحو الجبال التي تحيط بالعاصمة للدخول من جديد الى بيروت. تعتبر هذه المنطقة إحدى المناطق الآمنة حيث لم تصب بأذى طيلة سنوات الحرب الأهلية. هذه المنطقة مقطونة من العائلات الثرية أكثرها مسيحية والتي

بدأت تصبح مقرا للسفارات والمكاتب الدولية.

نبحث عن آثار الدمار لكننا لم نشاهد شيئا؛ لم تترك الحرب في هذه المناطق اي أثر لها. على اليسار وعلى بعد عدة مئات من الأمتار قبل الدخول في الشارع المؤدي الى القصر الجمهوري يوجد المقر الجديد للسفارة الإيطالية. وهو مبنى تتناقض هندسته المعمارية مع طبيعة الهضبة. بناء ضخم يشرف ويخيم على مساحة خضراء تحيط به وكأنه قلعة. انتقلت السفارة الإيطالية إلى هذا المقر منذ عدة أشهر حيث كانت تحتل مبنى جميلا في الشوارع الرئيسية في وسط بيروت على بعد أمتار قليلة من ساحة رياض الصلح. منذ سنوات طويلة والدبلوماسيون الإيطاليون يطالبون بنقل السفارة. وقد تم ذلك بعد محاولة مزعومة للهجوم على السفارة قبل عامين. آنذاك في شهر أيلول / سبتمبر 2004 ذهبنا الى السفارة للقاء السفير الإيطالي خلال الرحلة الإعتيادية للجنة «من أجل أن لا ننسى صبيرا وشتيلا». كان اللقاء ساعة الغداء وفي جوهادي ولطيف. دخلنا في السفارة وغادرناها دون اية عملية تفتيش. بعد أيام من عودتنا إلى إيطاليا قرأنا على صفحات الجرائد عن عملية للمخابرات الإيطالية. تتكلم العملية عن تتبع ومراقبة وإعتقالات وقعت في نفس اليوم الذي كنا نتواجد فيه بالسفارة الإيطالية. يقولون أنهم أفضلوا عملية تفجير سيارة مفخخة حاولت الوصول الى مدخل السفارة.

في ذلك الوقت لم نلاحظ أي شيء غريب ولم ندرك اية حركة غير اعتيادية. والغريب في ذلك وهذا شيء لا يمكن تجاهله أنّ شارع السفارة مخصص فقط للمشاة ومليء بحواجز لمنع دخول السيارات اليه منذ زمن طويل . هذا يكفي لإبداء بعض الشكوك والغرابة في ذلك الحادث.

وأخيرا وصلنا إلى مدخل قصر الرئيس إميل لحود. تفاجأنا بعدم وجود تفتيش. القائمة بأسمائنا التي سلمها صديقنا الفلسطيني قاسم الى السلطات اللبنانية كانت كافية وكفيلة. كانت التوصية الوحيدة بعدم إدخال الهواتف الخلوية ولا آلات التصوير. كان في إنتظارنا في صالة الإجتماع المواطن الأول لبلدة الغبيري محمد سعيد الخنسا. كان يشغل منصب رئيس البلدية وكان أيضا أحد قيادي حزب الله. وكان هذا شيئا جديدا بالنسبة للسنوات الماضية يدل على الصيت الطيب الذي إكتسبته الحركة الشيعية. بعد عدة دقائق يصل الرئيس وكلماته كانت مُعززة ومُؤكدة لهذا الشعور.

إستهل الرئيس لحود كلامه بتمنيته وتقديره للجنة لأنها ركزت وكرست مهمتها لعام 2006 ليس فقط لمجزرة صبرا وشتيلا بل وايضا لمذبحة قانا. وأكد الرئيس على أن مذبحة قانا بالنسبة للشعب اللبناني هي جراح قديمة فُتحت من جديد: هناك تمّ إرتكاب مجزرة في عام 1996. في تلك الأثناء تعرضت قاعدة قوات حفظ السلام التابعة

للأمم المتحدة القريبة من صور في جنوب لبنان لقصف عنيف دون رحمة. وكان قد لجأ الى القاعدة مئات اللبنانيين من النساء والأطفال والشيخوخ الذين هربوا من قراهم بسبب التهديدات الإسرائيلية.

كانت مجزرة. أيضا في ذلك الوقت تعالت الأصوات بالألم والغضب في لبنان وخارجه للمطالبة بمعاينة مرتكبي المجزرة. إلا أنه، كما ذكر الرئيس لحود "لم يحصل أي شيء من ذلك". إن عدم إدانة تلك المجزرة آنذاك أدت إلى نتائج واضحة: "الجريمة تكررت، وبوحشية أكبر". آنذاك وكما هو الحال اليوم كانت الولايات المتحدة هي التي عطلت إستصدار أي قرار إدانة من قبل مجلس الأمن.

في حديثه عن الحرب الأخيرة، بين الرئيس لحود كيف كانت إرادة تغطية العدوان الإسرائيلي واضحة جدا منذ البداية. يقول الرئيس لحود أنه بعد ثلاثة أيام من نشوب الحرب طالب الجميع بالإيقاف الفوري للعمليات الحربية. لكن بوش لم يدفع أبدا بشكل جدي وملموس في هذا الإتجاه. فقد حلّ محلّ الإدانة لإسرائيل الإعتزاز والإفتخار الوطنيين في لبنان. إنه شعور جديد في لبنان كان في الماضي عبارة عن شعور ذي نزعة طائفية سواء كانت مسيحية، أو درزية، أو شيعية أو سنية. شعور الإعتزاز الوطني هذا كان جلياً، عندما كان يذكرنا الرئيس لحود أنّ العديد من الدول العربية كان يعتقد أنه من المستحيل إيقاف الجيش الإسرائيلي، الذي يُعتبر أحد أقوى جيوش

العالم. "لقد تم تنفيذ إعداءاتهم: فلبنان الذي رغب دائماً بالعيش
بسلام لئن العالم أجمعه والدول العربية درسا لا يُنسى".

لم يذكر أسماء لكن صاحب الإنجاز البطولي في هذه الحرب
هو حزب الله. وحسب ما ذكره الرئيس لحود فإن حزب الله هو
الذي جلب النصر مرتين للشعب اللبناني: المرة الأولى عام 2000
بانسحاب الجيش الإسرائيلي من الجنوب اللبناني والمرة الثانية
هذه السنة. إن الذي جعل النصر ممكناً هي مقاومة حزب الله
المستوحاة من الحق، والمثل العليا والحرية. لكن لحود يثبت على
انه ذلك الجنرال الواقعي وذلك السياسي البارح حين يُصرّ على
أسباب قبول الهدنة رغم إدراكه أنّ الشروط كانت صعبة وشديدة
ويمكن أن تُهدّد وجود المقاومة.

"لم يكن بوسعنا أن نتحمل أيّاماً أخرى من الحرب والقصف
والدمار. كنا نطمح لشيء بسيط وسهل: ألا وهو السلام". من هذا
الحديث نستدرك إقتراحاً لو إنتهزته حكومة أولبرت واقتطفت هذه
الفرصة لفتح آفاقاً وعلاقات جديدة بين لبنان وإسرائيل. يُمكن أن
تتيح فترة ما بعد الحرب فرصاً لم تكن مرجوة ولا متوخاة: مؤتمر
سلام لدول المنطقة على أساس مشروع السلام العربي الذي
تقدمت به الدول العربية خلال إجتماع القمة الذي عقد في بيروت
التي عرضت حينئذ السلام مقابل كل الأراضي العربية المحتلة

خلال حرب الأيام الستة عام 1967.

وأضاف الرئيس لحدود، آنذاك، لم يتحقق أي شيء من هذا بسبب تعنت شارون. فقط بعد عدة أيام من قمة بيروت قام شارون بغزو الضفة الغربية وعزل عرفات في رام الله الرئيس الفلسطيني المنتخب من قبل شعبه بحرية وديموقراطية. "لقد ضاعت فرصة كبيرة وأدى ذلك الى موت عرفات". إنه كلام مؤثر جداً أن يخرج من فاه زعيم ماروني كلمات تقدير للزعيم التاريخي الفلسطيني الذي أُجبر على الخروج من لبنان عام 1982 بعد أشهر من الحصار الشديد.

بعد مغادرة القصر الجمهوري تحدثنا مع قاسم عن لقائنا مع الرئيس وكانت علامات الرضا تلوح على وجهه بالرغم من أن داخله يغلي بشعور متناقض. يُكح ويكرّر أن إعلان وإظهار التضامن مع الشعب الفلسطيني مهم جداً. وبشعور من التوتر يعود لمعاناة شعب يستضيف الفلسطينيين منذ أكثر من خمسين عاماً، أحياناً بطريقة غير شفافة وشعور الخوف من أن يجد اللبنانيون نوعاً من الوحدة بعد انتهاء نشوة النصر على حساب الضعفاء الفلسطينيين. شعور أدركناه ولاحظناه في مناسبات عدة خلال رحلاتنا.

استراحة صغيرة في الفندق حيث التيار الكهربائي في هذه الأيام في بيروت شيء ثمين ونادر، وها نحن جاهزون للخروج والذهاب الى

بلدة الغبيري الواقعة في ضاحية بيروت الجنوبية. كي نصل هناك لأبد ان نسلك شارع المطار ونزج بأنفسنا من جديد في أزمة سير شديدة وازدحام بسبب الجسر الذي دمرته الطائرات الإسرائيلية. نلاحظ هنا وهناك بعض العمارات المهدمة المنعزلة. تستضيف بلدة الغبيري مخيم شتيلا للاجئين الفلسطينيين ورئيس البلدية يعرفنا جيدا حيث التقينا به خلال رحلاتنا السابقة الى لبنان.

كان مقر البلدية محطتنا الأولى. يبدو أنه لم يتغير شيء. رئيس البلدية في انتظارنا في صالة مجلس البلدية وهو عبارة عن مبنى حديث ومؤثث جيدا. ضجة الشوارع قوية ومزعجة لدرجة أنها كانت تعيق حديثنا. النوافذ خالية دون زجاج ومغطاة بأكياس من البلاستيك. "لقد دمرها قصف الطائرات. والانفجارات حطمتها". نتحدث عن الأيام الطويلة تحت قصف القنابل، "كانت تتساقط على بعد خطوات قليلة منا" لكن الناس لم يدعوا مجالاً للهلع والخوف. يروي محمد سعيد الخنسا عن مدى روح التضامن التي كانت سائدة في تلك الأيام العسيرة والصعبة. خلفه توجد خريطة بكل المساكن المدمرة. الخريطة مليئة بالنقاط الحمراء التي تدل على مواقع الدمار. لكن الخريطة لا يمكنها أن تروي لنا مدى الهول والدمار الذي شاهدهنا بأم أعيننا بعد دقائق قليلة خلال جولتنا وتمشيننا في الشوارع.

إنتهينا من أكل الفاكهة التي قدمها لنا محمد سعيد الخنسا

وتوجهنا للضاحية الجنوبية من بيروت الى حارة حريك. حيّ مدمر عن بكرة أبيه كان يقطنه أكثر من 300 الف شخص تحول الى أكوام من الأنقاض. نتقدم نحوه والهواء يصبح صعب التنفس.

حارة حريك جحيم بمعنى الكلمة. شقق مغطاة بالسواد من دخان الانفجارات، ونوافذ محطمة وابنية مهدمة لم يبق منها سوى هياكلها، وعمارات بطوابق خالية ومهجورة. فجأة ندور حول زاوية لنجد أمامنا آخر محطات الجحيم: مجموعات كاملة من البيوت مدمرة ومسواة بالأرض. لم يبق شيئاً من هذا الحي الشعبي المكتظ بالسكان إلا صحراء من الغبار واكوام عالية من الأتربة والأنقاض. إنك تنظر الى الأنقاض وتتساءل لماذا يلزم كل هذا الحديد لبناء بيت. لم يتبق من كل هذه الشقق إلا الحديد المبروم الذي استخدم للبناء.

بينما كنا نتمشى، والغبار يغطينا، بين ما تبقى من آمال وأوهام الكثير من الناس تبرز لنا من تحت الأنقاض البقايا الصغيرة من الحياة اليومية. نرى إطار (برواز) لسورة من القرآن الكريم، وعربة طفل مكسورة وفرشة صغيرة ممزقة..... يقترب منا لبناني يرافقنا في هذه الجولة المؤلمة بين هذه المناظر الحزينة الرهيبة ويخبرنا أنّ تلك الفرشة لبنت صغيرة ماتت عليها خلال القصف.

كأننا ضعنا واختفينا في صحراء. صحراء من الانقراض. هناك، نجد الآن الرحاب الواسعة مليئة بالانقراض وهو ما تبقى من تلك المباني والعمارات البشعة المنظر التي سُيّدت في أواخر الستينات والسبعينات. اننا نعجز عن الحديث. إنه التأثير والإنفعال من هذه البشاعة والغبار الذي يغطي أجسامنا كأنه ضباب كثيف. المنطقة شبه مدمرة. الناس كالأشباح يبحثون بين الانقراض عما تبقى من أمتعتهم.

يقوم على حراسة ومراقبة المنطقة رجال بالزي المدني جالسون على أطراف الحي. من المؤكد أن يكونوا من رجال حزب الله. يقولون لنا أنه لا يمكن نقل أو تحريك أي شيء دون إذن أو موافقة رجال حزب الله. مراقبة صارمة وحراسة قوية دون أي تدخل في أمور الآخرين. يقول قاسم أنه تم استعمال قنابل الضغط الشديد التي تُخلف فراغات. عندما تصيب هذه القنابل بناية تجعلها كومة من الركام المتساقط فوق بعضه البعض أي أنها تختفي من الوجود. وتختفي معها حياة سكانه وكل امتعتهم. حارة جريك الحي الشيعي في ضاحية بيروت. معظم سكانه من الفقراء. من اللبنانيين ما دون طبقة البروليتاريا التي حاولت خلال العشر سنوات الأخيرة الخروج من البؤس والفقر ومخلفات الحرب الأهلية. فقر قديم ومدقع. كانت الثورة الإيرانية أواخر السبعينات تشكل لهؤلاء الناس مثلاً يحتذى

به للإنتفاضة والتخلص من هذا الوضع. ولأول مرة استطاع الشيعة بعد عقود طويلة من الزمن أن يُمسكوا بزمام أمورهم ومستقبلهم. ولهذا ولد حزب الله بعد انفصاله عن حركة أمل التي كانت تمثل غالبية الشيعة في لبنان.

لهذا، فقد تبنى حزب الله الرغبة والطموح في الإنتفاضة والنهوض لمقاومة الإحتلال الإسرائيلي ومن ثم ومع مرور السنين عمل أيضا على تحقيق المكاسب الإجتماعية. وعندما قررت إسرائيل أن تضرب بعنف وقوة هذه المنطقة كانت تعلم جيدا أن داخل هذه البيوت يعيش قلب حزب الله. لهذا قررت إسرائيل ضرب قلب حزب الله مباشرة. أيام وأيام من القصف. لكن هؤلاء الناس لم ينحنوا ولم يتراجعوا بل على العكس أدركوا أن هذه القنابل تزيدهم قوة وإصرارا واكتشفوا الشعور الأكبر بأنهم جزء من شعب ومن وطن ألا وهو الشعب العربي المقهور على أمره والمُجبر على تحمل الإهانات والظلم والإجحاف بحقه.

لكن هذا الدمار الكبير لم يكن لصالح سمعة ومكانة حزب الله. حزب الله قوة دينية أقدامه ثابتة في الأرض وواثق من نفسه. الرجال الذين يقومون بإزالة الأنقاض من هذه المنطقة ينتمون لمنظمات غير حكومية أو جمعيات تابعة بشكل أو بآخر الى حزب الله. فالحضارات لحزب الله، والجرافات لحزب الله وكذلك

المتطوعون من حزب الله.

يحدثنا بلال نعيم رئيس كشافة المهدي عن هذه "الماكينة" الهائلة والضخمة للدفاع المدني. لقاءنا به يتم تحت خيمة كبيرة مكتوب عليها "إعلام حزب الله". يقول بلال أن عدد سكان المنطقة يزيد عن خمسة مائة ألف نسمة وقد دُمّر ما يُقارب من أربعة عشر ألف شقة. ويضيف بلال أنه منذ اللحظة الأولى من إندلاع الحرب بدأنا بتنظيم عمليات إعادة الإعمار: "كان هناك المقاوم وكان هناك من يُفكر في المستقبل".

لقد تضرر أكثر من ستين ألف شقة لذلك كان من الضروري جدا التفكير بالولئك الذين فقدوا بيوتهم. بدأ حزب الله العمل على ذلك بسرعة. ومن ثمّ التفرغ للطارئ الثاني: إزالة الأنقاض والبدء بعملية الإعمار. من أجل ذلك - يضيف بلال - مساعدة الدولة ضرورية جداً لكنها غالباً ما نجدها غائبة.

لكن الأموال التي يقوم بتوزيعها حزب الله لمواجهة حالة السكن الطارئة للسنة الأولى تُخيف البعض سواء داخل لبنان أو خارجه. "هي مجرد تعويضات - يضيف بلال - تم جمعها من داخل وخارج لبنان". اليوم، مراحل عملية إعادة الأعمار تمضي قدماً للأمام والغريب أن التعويضات تأخذ وقتاً أطول: "نحتاج إلى سنة أو سنتين ونصف لتقييم الأضرار والخسائر التي لحقت بالأنشطة التجارية

والصناعية والزراعية وتبعاتها من البطالة. يقول بلال أنه تم فتح مراكز أخرى مشابهة لهذا المركز في بعض مناطق الجنوب. هدفها مساعدة الأهالي وتكثيف وتنظيف الشوارع وتعليم وتوعية الأطفال في المحافظة على سلامتهم وأمنهم ضد أخطار القنابل العنقودية. إنَّها أسلحة فتّاحة محظورة دولياً تصيب بشكل خاص الأطفال والنساء وتُبقي آثار الحرب لسنوات طويلة.

يعمل في هذه المراكز أكثر من ستة آلاف متطوع من "الرجال والنساء من كافة الطوائف". بلال نعيم لا ينفي علاقة حزب الله بهذا المركز: كان من الضروري "أن نقوم بالمبادرة لإدارة حالة الطوارئ هذه". لذلك - يضيف بعض المتطوعين - كان من الضروري أيضاً "تجنب إيقاع اللوم والذنب علينا بسبب التأخير وغياب الحكومة". خلال الأيام الأولى تعرض البعض منا لانتقادات. إلا أن مقاومة رجال حزب الله التي لم تكن في حسابان إسرائيل وحلفائها أدت إلى "تعزيز المساعدات وتفهم الناس لمواقفنا".

بين سحب الغبار، يعمل المتطوعون ويبدو على وجوههم المغطاة بالغبار والتراب، العناء والتعب. كلامهم أقل دبلوماسية من المنسق العام ويعيد بعض الجراح القديمة والإنقسامات السابقة. يقول أحدهم أنه لم تكن هناك بعد الحرب الأهلية عملية إعادة إعمار بمعنى الكلمة بل كانت عملية مضاربة وتلاعب من قبل بعض

المنتفعين والمزايددين. يمكننا أن ندرك أن من بين هؤلاء رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري الزعيم السني الذي أُغتيل في عملية قبل سنتين. نشأت إثر إغتياله حركة سياسية من أطراف مختلفة طالبت في البداية بخروج القوات السورية من لبنان ومن ثم بنزع سلاح المقاومة. كانت مؤامرة ذات أهداف غامضة. إن ما يطمح إليه هؤلاء الذين يقضون أيامهم في العرق والمشقة بين أنقاض حارة حريك هو ولادة شيء جديد من عملية الإعمار. " هذه المرة - يقول أحد المتطوعين - هذه المرة كانت تجربة لبنانية مختلفة يسودها جو التضامن. سيبدلون كل ما في وسعهم من أجل المحافظة عليها وعدم إضاعتها".

نسأل هل صحيح ما شاع في الغرب أن كل أموال التعويضات تأتي من إيران. بالنسبة للبعض لا جديد في هذا الموضوع، فالعلاقة مع إيران علاقة معلنة ولا ينفىها أحد. لا ينفي أحد أن مساعدات تأتي من بلد آيات الله لكن المصدر يختلف عما يُشاع " فالمسلمون يخصصون خمس دخلهم للمنفعة العامة. في السابق كانت غالبية هذه المبالغ تبقى في إيران أو تذهب للعراق لكنها الآن تأتي هنا".

بعد أن قضينا ساعات طويلة في حارة حريك راودنا القلق ونوعا من "الأناية" فالغبار الذي نتنفسه يمكنه أن يحتوي على مادة أسبستوس السامة. حاول بعضنا أن يتقي خطر تلك المادة بوضع

وشاح (لفحة) على فمه لأن لا أحد منا يريد أن يُغادر المكان. بقينا نسير بين الأنقاض كالأشباح. نتوقف للتحدث مع امرأتين كانتا تمسكان بأيدي طفلين. لقد تفاجأنا بترحيبهما بنا وتحدثهما معنا رغم الفاجعة والمأساة التي لحقت بهما.

وأخيرا كان قاسم هو الذي طلب منا ترك المكان والعودة الى الفندق. نتبعه بصمت شديد. التعليقات في الحافلة (الباص) قليلة جدا. إستغل مصورو مجموعتنا مسافة الطريق الى الفندق وأزمة السير لتنظيف عدسات الكاميرات المغطاة بالغبار. نغادر حارة حريك وفي مخیلتنا ذلك الصبي ذو القميص الأصفر والقناع الأخضر على فمه كأنه طبيب جراح وهو يحيينا رافعا إصبعيه بإشارة النصر.

في الفندق يخيم صمت كامل دون تعليقات وهمنا الوحيد هو الإستحمام للتخلص من رائحة الأموات والدمار. وهذا أيضا كان كفارق بيننا وبينهم.

نتناول طعام العشاء مع مي المصري وجان شمعون وهما مخرجان مشهوران في لبنان وخارجه حيث أنتجا أفلاما وثائقية عن ظروف وأوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان. تحدثنا مي وجان كيف عايشا الحرب صوت القنابل في الليل وعندما تشرق الشمس الذهاب الى الأماكن التي قُصفت لتصوير الدمار وتوثيق

نتائج الغارات الإسرائيلية. تحدثنا مي وهي من أصل فلسطيني عن امرأة كانت تلفّ وتدور بين الأنقاض دون أن تستطيع التعرف على بيتها المدمر. وتحدثنا أيضا عن فتاة أخذت ترسم بين الأنقاض لوحة "الجحيم".

أما جان شمعون يروي أنّ سائق سيارة أجرة (تاكسي) إعتذر عن مرافقته الى ضاحية بيروت بسبب نقص البنزين. يُدهشنا جدا رأي وحكم جان عن المقاومة وعن حزب الله. يقول جان لقد ازدادت سمعة المقاومة وعلا صيت حزب الله وأنّ ما حدث سيكون له صدى شديد وقيمة كبيرة في كل العالم العربي.

حُكم ورأي جان لهما وقع مختلف لكونه من عائلة مسيحية مشهورة حيث شغل أحد أفرادها في السنوات الماضية منصب رئيس الجمهورية. إلا أنّ تفاؤله لم يذهب أبعد من ذلك وسرعان ما يُحذّرنا من الآمال السهلة ويضيف قائلاً أنّ لبنان في هذه الأيام يعيش مرحلة تغيير وتطور سريعين وأنّ هناك قوى تحاول قلب نتائج المقاومة وفرض نزع سلاحها.

نحن في بيروت منذ يوم وثيف لكن يبدو لنا أنه مضى علينا من الوقت أكثر من ذلك. لقد قضينا يوماً مكثفاً وصعباً والأيام التي بانتظارنا ستكون أيضاً صعبة. وجهتنا القادمة: الجنوب.



بين أنقاض معتقل الخيام ثم إلى قرية بنت جبيل

في الصباح الباكر غادرنا بيروت متوجهين الى الجنوب. المسافة طويلة ومعظم الشوارع معطلة بسبب الدمار. يقول قاسم أنّ الحرب دمرت كل الجسور مما يخلق أزمة سير وصفّ طويل من السيارات خاصة على مداخل المدن. إنّها المرة الأولى التي نشاهد فيها بلدا خرج من لتوّه من الحرب صعوبة تخيل الدمار الذي خلفه قصف شهر كامل. لكن لا يزال في مخيلتنا ما رأيناه أمس في الضاحية الجنوبية لبيروت.

نمرّ من جديد أمام المطار هذا الشارع الذي بدأنا نعرفه جيدا لتوجه بعد ذلك الى الجنوب. نلاحظ أنّ كل الجسور الموجودة على طول الشارع الرئيسي (أوتوستراد) الذي يربط بيروت وصيدا مدمرة تدميراً كاملاً. الشوارع العليا والسفلى وممرات المشاة كلها مدمرة. لذا فاننا ندرك معنى عبارة القصف "الجراحي" الدقيق: إنها الدقة الرهيبة التي توقف شعر البدن. الوضع ليس بالأفضل عندما نتجاوز صيدا في الطريق الى صور حيث إضطررنا الى الإنحراف جهة الشرق باتجاه النبطية. هنا

بدأنا نشاهد البيوت المدمرة والأشجار المقطوعة. بعد ذلك توجهنا نحو الحدود مع إسرائيل.

وجهتنا هي معتقل الخيام هذا المعتقل سيء الذكر والصيت الذي اشتهر خلال الإحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان الذي دام من عام 1982⁽¹⁾ الى عام 2001 حيث كان مكانا للتعذيب الوحشي. كان هذا المعتقل يفص بالمعتقلين من المقاومة اللبنانية والفلسطينية وليس فقط من حزب الله كما كان يزعم البعض. لقد سمعنا في السنين الماضية أن كثيرا من الشيوعيين كانوا قد اعتقلوا وعذبوا وقتلوا داخل هذا المعتقل. بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي في عهد ايهود باراك تحول المعتقل الى نصب تذكاري يروي عمليات التعذيب الوحشية التي إرتكبتها الإحتلال الإسرائيلي فيه.

في الجنوب اللبناني الذي يقع تحت السيطرة الكاملة لحزب الله، تقوم جمعية تابعة للحزب بالإشراف على معتقل الخيام وأمامه يوجد مايشبه الحانوت لبيع مواد اعلامية وتذكارية لحركة حسن نصرالله. اليوم، جعلت الحرب من معتقل الخيام كومة من الأنقاض. لقد أرادت إسرائيل من ذلك أن تمحو كليا ”الذاكرة“ التي يرددها هذا المكان. والأكيف تُفسّر هذه الوحشية وهذه الضراوة

1- افتتح معتقل الخيام سنة 1985 بعد انسحاب اسرائيل الأول الى الحزام الأمني وإغلاق معتقل أنصار (الناشر).

ضد هذا المعتقل في الوقت الذي لم ينطلق منه أي صاروخ كاتيوشا نحو مستوطنة المطلة.

زيارتنا لمعتقل الخيام دليل قاطع على أن حزب الله هو السيد المطلق لهذه المنطقة. هنا نلتقي بنبيل قاووق المسؤول العسكري في حزب الله لجنوب لبنان بينما كانت طائرة عسكرية اسرائيلية تحلق فوق المعتقل السابق. "في البداية كانوا يريدون القضاء علينا ونحن أقوى مما كنا عليه، ثم حاولوا نزع سلاحنا ونحن نحفظ بكل أسلحتنا، وأرادوا طردنا من هنا إلى ما فوق نهر الليطاني ونحن موجودون على الحدود مع اسرائيل". إن تواجد الشيخ نبيل قاووق في بلدة الخيام هو في حد ذاته تحدّ لحكومة أولمرت.

ندخل في الصالة التي ستستضيفنا وايضا هنا نسير بين الأنقاض. في وسط الساحة يرفرف العلم اللبناني الأبيض والأحمر وفي وسطه شجرة الأرز إلى جانب علم حزب الله الأصفر والأخضر فوق مركبة عسكرية اسرائيلية تم إغتنامها خلال الحرب. هذا أحد رموز "النصر الإلهي" كما يسمونه هنا وأن تلك الأعلام التي ترفرف تعطي للمكان معنى رمزيا. ولهذا السبب يرحب بنا الشيخ نبيل قاووق قائلاً "أهلا بكم في الجنوب المقاوم". هذا المعتقل - يقول المسؤول في حزب الله - يشهد على عنف ووحشية إسرائيل. هنا كان يُعذب الأسرى اللبنانيون ومقاتلونا خلال الإحتلال الذي انتهى

في عام 2000. ربما كان الهدف من تدمير هذا المعتقل لمحو وإزالة آثار التعذيب والعنف". الشيخ بلباسه الأنيق وطربوشه الأبيض لا يتجنب أو يتملص من تقديم تحليل سياسي للحرب الأخيرة: "الآن لإسرائيل كابوس جديد يدعى حزب الله. لقد أبدى شبابنا مقاومة بطولية ضد القوة العسكرية الإسرائيلية التي هاجمت لبنان مستعملة أسلحة محظورة دولياً وضربت بشكل علمي مقصود أهدافاً مدنية وبيوتاً وشوارع وجسوراً لكنها عجزت عن تدمير تصميمنا وإرادتنا". نحاول أن نستفسر عن سيناريو المنطقة في المستقبل ويجيبنا الشيخ قاووق بكل لطف واحترام أنه "بفضل المقاومة تمّ إفضال المشروع الأمريكي - الإسرائيلي. لقد شنّوا حرباً وحشية للقضاء على حزب الله لكننا لا نزال موجودين".

هذه كلمات لها رونق دعائي لما بعد الحرب وهي منتشرة في كل لبنان إلا أنها تقودنا إلى ما كان ولا يزال لبّ المسألة: وهو تواجد حزب الله على خط التماس مع إسرائيل. الكثير في لبنان يطالبون بنزع سلاحه رغم تزايد الإعتراف بقيمة وفضل حزب الله لدفاعه المستميت عن حدود لبنان في الوقت الذي كان فيه الجيش اللبناني عاجزاً عن القيام بأيّ ردة فعل. "إنّ قوتنا العسكرية - يُؤكّد الشيخ قاووق - هي في خدمة لبنان ولمواجهة قوات الإحتلال. لن تُستخدم على الإطلاق ضد أي طرف لبناني. إنّ تصميمنا سيكون دائماً قادراً

على إخراج المحتل من أراضينا ذليلاً مدحوراً. أكرّر: إن عمل حزب الله كان حاسماً ولسنا مستعدين للقبول بالتقليل من شأن وأهمية هذا الإنتصار".

لذا فلا توجد أيّة نيّة عند المقاومة لنزع سلاحها بل ستستمر " ما دامت هناك أراض محتلة من قبل إسرائيل وما دامت إسرائيل مستمرة في إنتهاكاتها لقرارات الأمم المتحدة. ستبقى مقاومة حزب الله حية وفعالة . يبقى حل مشكلة مزارع شبعا: لا يعيننا إن كان قد حصل الإسرائيليون على ضمانات في هذا الخصوص. موعداً معكم العام القادم هناك في مزارع شبعا " .

المزارع التي ذكرها الشيخ قاووق نراها بأعيننا هناك فوق الهضاب المترامية أمامنا. وتمنى زعيم حزب الله أن يلتقي بنا هناك السنة القادمة. نسال الشيخ قاووق عن رأيه بمشاركة إيطاليا في قوة حفظ السلام اليونيفيل في لبنان. يجيب الشيخ قاووق دون أن يترك مجالاً لأي التباس أو غموض: " إذا كان إنتشار قوات اليونيفيل والجيش اللبناني ضمن روح القرار رقم 1701 فإننا سندعم ذلك. أهلاً بالأمم المتحدة على شرط أن تتحرر أراضينا". وفي الختام تطرق بكلمة مختصرة وسريعة لمن سألته عن العلاقة "الحميمة" مع إيران قائلاً: في العالم العربي وعلى ضوء ما يحدث في العراق لا يبدو أنّ هناك وحدة قوية بين القوى الشيعية: هل يُعتبر هذا

لصالحنا أم ضدنا ؟ وهذا برأي الشيخ قاووق يُفند وجود ما يُسمّى
بالهلال الشيعي. ومع ذلك فهناك من لا يُشاطره الرأي.....
فبالنسبة للإسرائيليين لا توجد هذه الإختلافات"

نغادر الخيام لكن جولتنا في جنوب بلد الأرز مستمرة. نتجول
على طول الحدود مع الجليل حتى بنت جبيل البلدة الرمز للمقاومة
اللبنانية. يتابنا نوع من شعور التحدي للجار الإسرائيلي. نمرّ ببوابة
فاطمة النقطة الحدودية الوحيدة في الجنوب التي شهدت في بداية
هذا القرن لقاء اللاجئيين الفلسطينيين مع ذويهم في الجليل. كان
ذلك اللقاء لحظة مؤثرة جدا وتدعو إلى التفاؤل والأمل بعد فراق
دام أكثر من خمسين عاما نتيجة الحرب والإحتلال وقد تمّ تصوير
ذلك المشهد بمهنية فائقة من قبل ميّ المصري.

بعد بوابة فاطمة نشاهد المزيد من الدمار والخراب. أيضا هنا
الرجال والنساء يدورون حول أنقاض بيوتهم ويقلبون ما تبقى منها.
وفجأة نشاهد بعض الإسرائيليين على الطرف الثاني من الحدود
يحاولون تصليح الأسلاك الشائكة التي تفصل بين البلدين. البعض
يرفع عينيه ويردّ بإشارة من يده على تحية إستهزاء وتهكّم وجهها
لهم الآخرون.

جولتنا مستمرة على طول الحدود دون ان نلتقي بجنود لبنانيين أو

بين أنقاض معتقل الخيام ثم إلى قرية بنت جبيل

بقوات اليونفيل. وبعد سير طويل وقطع كيلومترات عديدة لم نشاهد إلا ملصقات لحزب الله ولحركة أمل (القوتان الشيعيتان في لبنان) تحمل صوراً لزعمائهما وللشهداء. ثم رويدا رويدا تقترب من البحر حيث بدأنا نشاهد القوات الدولية.

على مداخل بعض البلدات نشاهد بعض الجنود الأفارقة وهم يُفرغون بعض المواد من سياراتهم الجيب وبعض الجنود الآسيويين وعلى رؤوسهم اللغات الزرقاء بدل الخوذ العسكرية يجلسون على جدار. وكذلك بعض المواقع للجيش اللبناني والقوات الدولية المنتشرة هنا وهناك. والباقي دمار في دمار.

بعد ذلك نصل بلدة بنت جبيل. قبل شهرين كان اسم بنت جبيل غير معروف حتى لدى بعض اللبنانيين، لكن خلال الأيام العسيرة للحرب أصبحت لها شهرة عالمية. لقد حاول الجيش الإسرائيلي طيلة ثلاثة وثلاثين يوما من القتال أن يحتل الهضبة التي تتواجد عليها البلدة دون أن ينجح في ذلك. نذكر عناوين الجرائد خلال أيام الحرب والأخبار التي تتحدث عن معارك عنيفة على طول هذه الشوارع وعن السيطرة "البطولية" على البلدة ومن ثمّ الإنسحابات المفاجئة.

أيضا هنا على مدخل بلدة كأنها الشبح، نشاهد البيوت مدمرة

عن بكرة أبيها ومساواة بالأرض تاركة مكانها سحابة من الغبار ورائحة الأموات، نُحسّ ونلمس وجود حزب الله. فمنهم من يبيع على طاولاته وبساطاته صور زعيم الحركة الشيعة حسن نصر الله ومنهم من يُنشد ويفني الأناشيد الوطنية التي تُشيد بالحزب الشيعي. هنا لا يوجد اي أثر للقوات الدولية ولا لتلك اللبنانية. بالطبع الوضع لا يسمح بتواجد هذه القوات لأن غضب ويأس من وجد حياته فجأة مُدمّرة ودون مستقبل لا يستحمل تواجدا كهذا.

البلدة عبارة عن قرية أُخرى تُشبه الشيخ. الحركة على طول الشارع الرئيسي شبه معدومة، والجرافات تعمل على إزالة الأنقاض وبعض الحوانيت المفتوحة. أحد هذه الحوانيت "بقالة". نتدافع اليه لنشتري ما يروي عطشنا. الرجل الموجود على الصندوق كان كريماً ولطيفاً رفض أن يأخذ ثمن عصير الفاكهة. يكفيه أن يعرف أننا إيطاليون وسبب تواجدنا هناك. نتساءل انه من الصعب أن نشاهد في وضع كهذا شيئاً من هذا القبيل في مدننا. هذا سحر وجمال الشرق الأوسط.

نبتعد قليلا عن الشارع الرئيسي لنصادف عشرات البيوت المهدامة. هذا المنظر يُعيد لمخيلتنا ما شاهدناه في اليوم الأول في ضاحية بيروت الجنوبية. لكن المنظر مؤلم ومفجع كثيرا. هنا البيوت المهدامة ليست عمارات مكونة من ثماني طوابق أو أكثر، مما يجعل

بين أنقاض، مهتلل الخيام ثم إلى قرية بنت جبيل

من الصعب التعرف على البيوت من الأنقاض. هنا الكل يعرف الكل ومن كان يسكن ويعيش في هذه البيوت. الأطباق المكسورة، واللوحات والكتب الممزقة، الأسرة والأغطية وألعاب الأطفال وغير ذلك.... هنا كان يعيش رجال ونساء وأطفال عاديون وعائلات مثل كل العائلات وليس كما حاول البعض أن يدعي عبر دعاياته الكاذبة والمضللة أنّ هؤلاء قتلة ومتوحشون.

نغادر بنت جبيل متوجهين الى مدينة صور. وعلى مفرق احدى الطرق نشاهد يافطة مرفوعة كُتب عليها: لقد دمرتم جسورنا لكننا سننتصر بقلوب أهلنا. ندرك ونعلم جيدا أنّ هذه «دعاية» لكن هذه الأيام القليلة التي نعيشها في لبنان علمتنا أن هذه الشعارات تحمل في طياتها حقائق كثيرة.

إنّ منظر البحر الذي يلوح لنا من بعيد يبعث في نفوسنا شعور التحرر والتخلص من الكآبة والحزن. كلما تقترب رويدا رويدا من عاصمة الجنوب نرى أنّ المشهد قد تغير. الأراضي القاحلة التي تمتد لعدة كيلومترات والمطلّة على الأراضي الإسرائيلية الخضراء المجاورة - وهذا كله يعود للإحتلال الظالم وللإستغلال الوحشي والبغيض لمصادر المياه من قبل إسرائيل - أصبحت اليوم أراض مزروعة بأشجار الموز.

على بعد كيلومترات قليلة نشاهد سيارتين عسكريتين للجيش

الإيطالي تمر من أمامنا. النظارات السوداء تغطي أعينهم والرشاشات مُصوّبة جاهزون للقتال وزيهم العسكري يدل على أنّهم من كتيبة سان ماركو. هذا السلوك يختلف نوعاً ما عن طريقة تصرف وسلوك القوات الأفريقية والآسوية التي شاهدناها على الحدود مع إسرائيل. ربما المشاركة الإيطالية في العراق وأفغانستان أثّرت بشكل كبير على الجنود الإيطاليين.

لقد رحبت كل القوى السياسية التي التقينا بها بقدوم قوات اليونيفيل بشرط أن تكون قوة فصل على الحدود وليس قوة لنزع سلاح أحد. إنّ الشعور الغالب في لبنان ومن ثمّ التخوف من أنّ الدبلوماسية ستحاول العمل على قلب الشعور العام في لبنان بالنصر لتحوّله الى هزيمة. ينبغي أن لا نفهم السلوك الإيجابي للناس في لبنان أنّه تفويض كامل لهذه القوات لعمل ما تشاء. ولا يمكن أن يكون كذلك إذا اعتبرنا ان الحكومة المركزية وبعد مُضيّ شهر على انتهاء الحرب لم تصل حتى الآن الى كثير من هذه القرى. إنّ الجرافات التي تعمل على إزالة الأنقاض كلها تابعة لحزب الله وأيضاً المساعدات المادية كلها من حزب الله. هل يثير العجب والدهشة إذا سمعنا أنّ بعض الأهالي استقبلوا القوات الدولية بقذفها بالحجارة؟ الإحتجاج ليس موجهاً ضد اليونيفيل. لكنه مُوجّه ضد أولئك الذين تركوا هؤلاء النساء والرجال وحدهم.

توقفنا قليلا في صور، فقط ما يكفي من الوقت لتناول ساندويش فلافل والالتقاء برئيس البلدية. عبد المحسن الحسيني وهو رجل غريب وظريف وأصيل. ننتظره لمدة عشر دقائق في صالة المجلس البلدي وعندما يحضر يرفض الجلوس على الكرسي المخصص له كرئيس للجلسة ويرفض التعامل معنا بالرسميات. يحدثنا عن وجهة نظره ورأيه في الحرب خاصة فيما يتعلق بتبعيات الحرب. إنه يكره كل أشكال البيروقراطية ويتحدث عن رغبته في استئناف الحياة اليومية مع مواطنيه من جديد. هذه الرغبة القوية كثيرا ما تصطدم ببيروقراطية سيئة إن لم تكن عدوة. يحدثنا عن العمل الشاق والمستمر للجرافات والحفارات التي أعدادها غير كافية لإزالة الأنقاض ومعظمها تابعة لجمعيات وشركات محلية. يروي لنا عبد المحسن الحسيني الذي يعتلي وجهه العناء والتعب كيف يحاول الناس بصعوبة كبيرة تصليح ما يمكن تصليحه مما تبقى من بيوتهم وغالبا لا يُفلح في ذلك بسبب التسعمائة ألف قنبلة عنقودية التي ألقتها إسرائيل في آخر ثمانية وأربعين ساعة من الحرب بهدف ترحيل كل سكان المنطقة. قبل عدة ساعات من وقف إطلاق النار حاول قادة الجيش الإسرائيلي إبعاد وطرد مقاتلي حزب الله من المناطق الحدودية إلا أنهم لم يأخذوا في الحسبان تصميم وإرادة المقاومة اللبنانية. رئيس البلدية يتطرق في حديثه أيضا عن القنابل

التي لم تنفجر والتي تمنع وتعيق المزارعين من قطف الفواكه الناضجة: إنها حلقة لولبية من العنف ستؤدي إلى زيادة الفقر في المجتمع وتشديد الخناق الإقتصادي عليه.

نغادر مقر البلدية ولم يبق لنا سوى دقائق معدودة لزيارة المدينة ومعالمها القديمة. نتوجه الى مخيم الرشيدية الذي يبعد بضع كيلومترات عن صور. يعتبر هذا المخيم من «أفضل» مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان بسبب قربه من البحر. المخيم يقع تحت سيطرة وإشراف حركة فتح المنظمة التي أسسها ياسر عرفات. في بعض الفترات وأيضاً مؤخراً كانت تصل إلى «الموالين» للحكومة - الحزب التابعة لعرفات - موارد وخيرات تسببت في نوع من الشعور بالحسد والنقد من قبل الفلسطينيين الآخرين في لبنان.

على مدخل المخيم وبعد تفتيش سريع من قبل الجيش اللبناني - وهذا ما يحدث في كل المخيمات الفلسطينية - تنتظرنا قيادات كل المنظمات الفلسطينية السياسية المتواجدة في مخيم الرشيدية. من الواجب القيام بجولة سريعة في أزقة المخيم ومن ثم زيارة روضة أطفال تُشرف عليه منظمة غير حكومية «بيت أطفال الصمود» حيث نظم الأطفال عرضاً مسرحياً بالمناسبة. في ختام العرض يسلمنا الأطفال «رسالة مفتوحة الى الأصدقاء الإيطاليين». كلمات مؤثرة عن حقهم وحق أطفال لبنان في أن يعيشوا طفولتهم بسلام

واطمتنان كما يعيش كل الأطفال في العالم.

اليوم يمر بسرعة كبيرة. دقائق قليلة وإذا نحن لدى سلطان أبو العينين القائد - الأمير للمخيم ومسؤول حركة فتح في لبنان - داخل صالة كبيرة يتحدث سلطان عن "الحرب الأخيرة التي شنتها إسرائيل على لبنان دون أن تحترم أي مبدأ إنساني أو أخلاقي. كانت حربا عدوانية وحاقدة بلا أهداف محددة إلا فقط إرعاب الناس وتدمير البنى التحتية والمساكن وأيضا وحدة لبنان". عمل «إنتقامي»: كان هذا رأي المسؤول السياسي والعسكري لفتح. يقول سلطان أبو العينين إنّه " صُدم من تصريحات كوندليزا رايس عندما قالت بعد مضي عشرة أيام على الحرب أنه لم يحن الوقت لإعلان وقف إطلاق النار". "لا أحد يتوقع من وزيرة دولة عظمى تصريحا كهذا. بل على العكس طالبت إسرائيل بتصعيد وتكثيف عملياتها العسكرية لفرض شروط سياسية على لبنان. أهذه هي الدولة العظمى التي تنادي بالديمقراطية وحقوق الإنسان؟ الهدف المعلن والوحيد من قبل الولايات المتحدة هو إقامة شرق أوسط جديد". بعد ذلك يبدأ الزعيم الفلسطيني بالتحدث عن شعبه وأنه الشعب الوحيد الذي حُرّم من وطنه: " لا حقّ لنا في السيادة على أراضينا ونعيش في سجن كبير اسمه فلسطين. أما إسرائيل فلها ثلاثة سفراء في العالم يدافعون عن مصالحها فبالإضافة

الى سفيرها يوجد السفير الأمريكي والإنجليزي وهذا له نتائج وخيمة على الشرق الأوسط. لقد طبقنا الديمقراطية بحذافيرها في فلسطين وأجريت الإنتخابات التشريعية وفازت حماس. لماذا لا يسمحون لحماس بالحكم؟ لماذا تمّ اعتقال وزراء حكومة حماس رغم أنهم كانوا مستعدين للإتفاق على هدنة؟".

نسألهم عن وجهة نظرهم في وجود القوات الإيطالية ضمن اليونفيل وعن إمكانية تكرار هذه التجربة في فلسطين: الجواب كان بكامل الصراحة: "هل يُعتقد فعلاً أنّ إسرائيل ستقبل بتواجد قوات دولية في الأراضي المحتلة؟ وحتى لو قبلت بذلك فلن يمنعها أحد من الإستمرار في قتل وإغتيال الفلسطينيين. الحقيقة أنّ المجتمع الدولي هو في خدمة اسرائيل حتى وإن كانت الحرب الأخيرة على لبنان ولدت بعض الشكوك في نفوس أولئك الذين كانوا يعتقدون بالتفوق السياسي والعسكري لإسرائيل. الحل الوحيد هو قيام دولة فلسطينية. لكن هل الولايات المتحدة واسرائيل مستعدتان للإعتراف بالحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني؟".

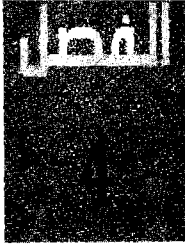
نفس الأسئلة التي نتساءلها كل يوم دون ان ننجح في إيجاد أي جواب لها. في الأثناء يشارف لقاءنا على النهاية. نسأل عن ظروف حياة الفلسطينيين في لبنان بعد الحرب: "إنّ وضع اللاجئين صعب جداً وهذا ما إعترفت به الحكومة اللبنانية قبل الحرب. حالياً لقد

أبعدت الحرب الأخيرة وأجلت أي تحسن في الظروف المعيشية للفلسطينيين في لبنان. بعضهم بدأ الحديث من جديد عن سلاح المخيمات. فليكن من الواضح جداً أنه لن نقبل بأي مفاوضات بهذا الشأن ما لم يُعترف بحقوق الفلسطينيين المقيمين في لبنان".

القرار رقم 1559 الذي يطالب بنزع سلاح حزب الله يتحدث بوضوح كامل أيضاً عن نزع سلاح كل الميليشيات في لبنان. إنه واضح للجميع أن الهدف الأساسي وقبل كل شيء هو إضعاف قوة حزب الله. بعد حزب الله يأتي مباشرة الفلسطينيون الذين يشكلون دولة داخل دولة. إنَّ الخطر المحدق في المستقبل كما أثبتته التجارب المتعاقبة والتاريخ هو إيجاد حل ووساطة أو تسوية مقبولة مع حزب الله وبهذا يتحول كل التوتر اللبناني لينهال على اللاجئيين الفلسطينيين.

أثناء توجهنا نحو الحافلة الصغيرة التي ستقلنا إلى بيروت طلب منا بعض الأشخاص التوقف قليلاً: يريدون أن يحدثونا عن حياتهم وعن مقاومتهم خلال الحرب وتضامنهم مع أشقائهم اللبنانيين: "لقد فتحنا أبواب مخيماتنا لهم: هذا الحد الأدنى الذي يمكننا تقديمه لهم لنبادلهم المعروف والتضامن الذي قدموه لآبائنا وأجدادنا قبل ستين عاماً". يحدثوننا عن تضامن كبير. في أيام القصف المكثف والعنيف على منطقة صور اختفى الخبز من الأفران والدكاكين. كانت الأفران ترفض العمل في تلك الظروف وكان

الأكثر تضرراً من ذلك هي الطبقة الفقيرة. لذا قرر مسؤولو مخيم الرشيدية تكثيف ومضاعفة انتاج الخبز وتوزيعه على اللبنانيين. كان يلزم لذلك المواد الأولية والطحين والمحروقات لتشغيل الأفران. يلزم أيضاً البنزين لنقل الخبز بالسيارات. لذلك تمّ استئجار صهريجين لنقل المحروقات للمخيم. كانت أيضاً أجرة الصهاريج عالية وغير معقولة. في البداية رفض أصحاب الصهاريج تأجيرها خوفاً من قصفها من قبل الطائرات الإسرائيلية. وفي النهاية استطاع الفلسطينيون إقناعهم: دفعوا لهم مبلغاً كبيراً كتأمين. وهنا بدأت مشكلة من سيقود الصهاريج المليئة بالوقود الى المخيم. لا أحد من عمال الشركة المؤجرة لهذه الصهاريج قبل أن يغامر ويقود هذه الصهاريج. عندئذ تقرر أن يقودها سائقون فلسطينيون. كل شيء كان يبدو على مايرام باستثناء تراجع ممكن في اللحظة الأخيرة من قبل الفلسطينيين. لذا تقرر ارسال سيارة بسائقين آخرين تتبع الصهريجين مستعدين لأخذ مكانهما في حالة حدوث أي طارئ.



قررنا الذهاب للجنة ومعنا سلاحنا

أيضاً هذا أحجية ولفز من الألفاظ التي هي جزء من المقاومة.
نحن الآن في يوم الخميس. أيضاً هذا الصباح سنغادر باكراً.
وجهتنا هذه المرة مدينة بعلبك المدينة المشهورة في كل العالم بأثارها
الرومانية. تُعد بعلبك من المناطق الأثرية المهمة ومعترف بها من
اليونسكو «كثروة للإنسانية». السفر الى بعلبك يضطرنا للسير في
الشارع المؤدي الى العاصمة السورية دمشق. نحن الآن في طريقنا
نحو الشرق.

نغادر بيروت مارّين بالمناطق المحاذية للقصر الجمهوري. أحياء
مسيحية غنية. بعد ذلك نبدأ بالصعود نحو الجبال التي تفصل بين
سوريا ولبنان. وبعد أن قطعنا حوالي خمسين كيلومتراً فإذا نحن
في صف طويل وغير معتاد من السيارات. ندرك بعد عدة دقائق أن
هناك انحراف إجباري عن الطريق. الآن وقد أصبحنا «خبراء»
ندرك أنّ البطء في حركة السير ناتج عن جسر آخر مُدمّر. هذه
المرّة الجسر المُدمّر كبير وهو أهم الجسور حيث يربط العاصمة
بيروت بدمشق.

قبل الأزمة التي أدت الى خروج الجيش السوري من لبنان، كان مئات الآلاف من اللبنانيين يعبرون هذه الطريق الى سوريا ليتبضعوا أو ليقضوا أمسية جميلة وممتعة في احد مطاعم الشام وهو الإسم العربي لسوريا بلد بشار الأسد. مشاهدة جسر مدمر بهذا الحجم يبعث على الهول والرعب، طريق بكاملها مدمرة ومتراكمة فوق بعضها البعض في الأسفل على عمق مائة متر. يروي لنا قاسم أنّ هذا الجسر كان أول ما دُمّر لمنع وقطع أي اتصال بين لبنان والجارّة سوريا.

نستغل الوقت المتبقي لوصولنا الى بعلبك للتحدث مع قاسم. يُؤكّد لنا صديقنا الفلسطيني واقعيته المستلهمة من عشرات السنين من التجارب والأوهام والمعارك الخاسرة. يُحدثنا عن شعبية زعيم حزب الله ولكن في نفس الوقت لا يُخفي الأخطار والمخاوف التي تلوح في الأفق. المستقبل المجهول الذي يعيشه بلد كلبنان المنقسم داخلياً، حيث من الممكن أن يتفجر في اية لحظة صراع داخلي وحرب أهلية بين الإخوة أدت به في السنوات الماضية الى صراع دموي لا تزال حتى الآن آثاره واضحة للعيان في بعض شوارع بيروت. قاسم مقتنع أنّ الطريقة الوحيدة لتجنب شيئاً من هذا القبيل هو إفتاع اللبنانيين بأهمية الدور الذي لعبته المقاومة.

بعد أكثر من ساعتين وصلنا بعلبك. وهي أكبر مدن المنطقة

وتقع في قلب وادي البقاع الذي يفصل بين سوريا ولبنان والذي كان في السابق مشهوراً بزراعة الخشخاش (الأفيون). بالضبط في هذا الوادي في عام 1982 نشأ حزب الله متفرعاً من حركة أمل التي كانت آنذاك الممثلة الوحيدة للشيعة. ومنذ البداية، كانت نقطة الخلاف الجوهرية والأساسية مع الحركة الأم أمل هي اعتبار آيات الله في إيران الذين كانوا قد وصلوا للسلطة لتوهم كمرجعية بدلا من حكام سوريا.

كان مقر البلدية أول جولة لنا في المدينة. تبدو لنا المدينة ككل مدن الشرق الأوسط مكتظة بالدكاكين والسيارات والناس. بالنسبة لنا كانت هذه لإعتبارات مختلفة مفاجأة سارة: لا تزال في بعلبك إمكانية عيش وتنفس الجو العربي الذي اختفى من المدن الساحلية التي تعج بالفوضى والتي تغيرت طبيعتها بسبب العولة التي تحاول خلط كل شيء ودمج الجميع. نجد نفس الفوضى حول مبنى البلدية حيث يتدافع الناس نحونا للطلب منا التدخل لحل مشاكلهم اليومية.

"أنتم إيطاليون، أنتم إيطاليون...." يصيح نحونا رجل كبير في السن يحاول إبراز شهادة تثبت أنه ذو عاهة وأنه يستحق المساعدة من البلدية. لا أحد منا كان قادراً على إعطائه إجابة على ذلك، لكنه استمر في طلبه وتظاهر مرة كأنه موظف في البلدية ومرة أخرى كأنه مرشد فيها حتى وصل الى الغرفة التي سيستقبلنا فيها نائب رئيس

البلدية. لم تنتظر طويلاً بل كان هناك نوعاً من الفوضى للدخيلين والخارجين الفضوليين لتواجدنا هناك.

بعلبك كباقي المدن الأخرى: أيضاً هنا السلطات المحلية تشيد وتُجَدِّد «المقاومة»، ويعرضون لنا القائمة الطويلة للخدمات التي تعطلت بسبب الحرب وكذلك الدمار الذي لحق بالمنطقة. لقد تعرض جزءاً من المدينة للقصف الإسرائيلي: الحدود الإسرائيلية بعيدة عن هنا «وذنب» هذه المدينة كونها قريبة من الطريق المؤدية الى دمشق والأهم من ذلك لأنها كانت مهد ولادة الحركة الإسلامية التي يتزعمها الشيخ نصر الله.

لقد وقعت هنا خلال الثلاثة وثلاثين يوماً من الحرب أغرب حادثة في النزاع الأخير. في إحدى الليالي قررت قيادة أركان الجيش الإسرائيلي القيام بعملية استعراضية وصاخبة قادرة على قلب شعور الإحباط الذي يخيم على بلدهم بسبب المقاومة الباسلة والعنيفة التي واجهوها في جنوب لبنان. لقد تقرر القيام بعملية خلف خطوط التماس وبالضبط في بعلبك لخطف زعماء بارزين من عائلة زعيم حزب الله الشيخ حسن نصر الله إن لم يكن هو بذاته. فقد قامت مروحيتان قتاليتان بإنزال مجموعة من الكوماندوز في ضاحية بعلبك التي سرعان ما اكتشفها الأهالي بعد انزالها على الأرض.

وقد أدى الى اشتباك عنيف وشرس مما أجبر الكوماندوز الإسرائيلي على الإنسحاب السريع والعودة من حيث أتوا. لقد قتل في الإشتباك عشرة لبنانيين. من بينهم بعض قيادات الحزب الشيوعي اللبناني (سيحدثنا عنها في نفس المساء رفاقنا في الحزب الشيوعي أثناء حفلة عشاء أقاموها على شرفنا) - بعد انتهاء العملية العسكرية تُعلن مصادر اسرائيلية أنه بالرغم من كل شيء فإن العملية نجحت وان الجنود الإسرائيليين استطاعوا أسر خمسة من قادة حزب الله ومن أقارب الشيخ حسن نصر الله. بل بعد عدة دقائق أُشيع خبر، أن من بين الأسرى الشيخ حسن نصر الله شخصياً.

تمضي عدة أيام قبل أن يأتي النفي على لسان الناطق باسم الجيش الإسرائيلي خلال بيان يعلن فيه عن قرب إطلاق سراح الخمسة لبنانيين. يتبين بعد ذلك أن أربعة منهم كانوا من المزارعين الفقراء والخامس كان ذنبه الوحيد أنه يحمل نفس الإسم واللقب للزعيم العربي وبعد هذه الحادثة أصبح من أكثر المشهورين في كل المنطقة.

لكن الإسرائيليين لم يُخطئوا شيئاً واحداً: وهو مدى التأثير الكبير لحزب الله في هذه المناطق. ليس من باب الصدفة أن يُرافق رئيس المجلس البلدي خلال لقاءاته بنا مسؤول المنطقة في حزب الله. إسمه مُحضر الجمل الذي من خلال كلامه وحديثه يظهر ويؤكد

على طريقة الجدل والديالتيك التي تتميز وتتمتع بها كل قيادات حزب الله. هنا تخشى قاعدة الحزب ويخشى زعماءه العاملون في المنطقة أنّ الدبلوماسية العالمية من خلال قرارات واتفاقات سرية ومؤامرات مع حكومة فؤاد السنيورة تستطيع قلب النتائج والمكاسب التي حققتها المقاومة وإعطاء إسرائيل ما فشلت في الحصول عليه في ثلاثة وثلاثين يوماً من الحرب.

من هنا يتعالى النقد العلني لحكومة مُتّهمة بمواقف ضعيفة ولينة جداً وميالة للوساطة. لذلك فإن المزايدة على هذا الجدل الديالتيكي السائد هنا أو التشديد على مأساويته وسلبيته يُعتبر خطأً جسيماً لأنّ هذا الجدل وهذا النقد هو عماد وأساس الديمقراطية في بلدنا إيطاليا وفي بلاد كثيرة من العالم. هكذا فقط يُمكننا قراءة وفهم عبارات مثل: "نحن مصممون أكثر من الماضي على المحافظة على سلاحنا للدفاع عن أنفسنا؛ قررنا الذهاب الى الجنة ومعنا سلاحنا؛ لا توجد حرية بلا سلاح؛ لا يمكننا التعايش مع هذا العدو المجرم بدون سلاح".

خرجنا من فوضى البلدية وقطعنا شوارع المدينة المزدحمة والمجاري المكشوفة لنصل الى المنطقة التي تعرضت لقصف الطيران الإسرائيلي. وايضا هنا سرعان ما نشم الروائح المنبعثة من تحت الأنقاض. المباني المهتمة ليست كثيرة جداً، لكن الشعور

الذي يتتابنا عندما نمشي فوق ما تبقى من هذه البيوت هو: شعور الغضب والقهر والعجز لعدم تمكننا من إيقاف وتجنيب هذه المأساة غير المجدية التي دامت أكثر من شهر.

بينما كانت الديبلوماسية تتناقش في وضع وحذف النقاط والفواصل في قرار 1701، كانت القنابل تتساقط والناس يرون بألم أعينهم موت اصداقائهم وعائلاتهم وآمالهم التي بنوها وتعبوا عليها وضحوا من أجلها طيلة حياتهم. هذه الأكوام من الأنقاض تشد انتباهنا، يحكون لنا أنّ هناك مكان تلك الأنقاض كان موجودا سوپر ماركت كبير. وبزخّة من القنابل تمّ تدميره بالكامل، لكن الشيء الإيجابي الوحيد أنّه كان مُغلّقا لأنّه كان يوم جمعة وهو عطلة أسبوعية عند المسلمين. في الجهة المقابلة من الشارع على بُعد خمسين متراً يوجد مبنى مدمر متهاوٍ على نفسه وبجانبه مبنى آخر اندثر واختفى في حفرة كبيرة. نقترّب من الحفرة لنرى جيداً ماذا حدث هناك، لكن بعض الجنود اللبنانيين يمنعون من ذلك. يقول لنا مرافقونا بأنّ في الحفرة صاروخ لم ينفجر والخبراء يعملون على إبطال مفعوله قبل تفجيرها. جولتنا المرعبة والمأساوية بين الدمار والخراب تشمل أيضا على قصر المهن (الحرف) حرقاً بكامله، وهو خالٍ من كل شيء كأنّه وعاء فارغ، لقد كان مقراً للمرشدين السياحيين لم يبقَ منه سوى بعض أسلاك الكهرباء والمصابيح.

ندرك من خلال جولتنا في بعلبك أنّ الأبنية والعمارات التي تعرضت للقصف الأعمى والعشوائي ليست فقط الأبنية المجهولة والعادية بل أيضا الأبنية المعمارية التاريخية والنادرة. وأن ما يزيدنا ألماً ومعاناة أنّ الناس الذين يسكنون هذه البيوت هم أنفسهم ولم يتغيروا. كان من ضمن برنامجنا السياحي الصباحي جولة سياحية هذه المرة حقيقية وهي زيارة «هليوبوليس» موقع الآثار الروماني ذي القيمة التاريخية الكبيرة مما دعا اليونسكو للإعتراف به كتراث إنساني عالمي.

من المؤثر جداً الانتقال من الدمار والأنقاض التي خلفتها الحروب وأعمال العنف إلى الآثار القديمة التي تركتها امبراطوريات كانت تعتقد أنها ستحكم وتسيطر على العالم الى أبد الأبدين لكنها مع الزمن تحولت الى بقايا ساكنة وجامدة دون حراك. يبعث هذا الموقع الأثري على الدهشة لعظمته ولجماله. تأخذ الزيارة طابعاً خاصاً وجذاباً كوننا الوحيدين الذين يطؤون تلك الأرض ويتجولون بين حجارتها وآثارها. وفعلاً كانت إحدى النتائج التي خلفتها الحرب هو توقف السياحة وشل كل أشكالها التي كانت تُشكل أهم مورد للدخل والحياة المدنية.

أيضا هنا كما هو الحال في مدينة صور بدأت حالة من الفقر التصاعدي في المجتمع. هذا ما لاحظناه وشاهدناه على مدخل الموقع

الأثري من تدافع المرشدين السياحيين وبائعي البطاقات والأشياء التذكارية نحونا. كل هذا طبيعي بسبب صعوبة وجود السياح والمشتريين لكن من المدهش وجود أعلام حزب الله وقمصانه وبلوزاته ذات اللون الأصفر ترفرف على تماثيل ونصب الموقع الأثري.

قبل عودتنا الى بيروت كنا مدعويين على حفلة غداء أقامها على شرفنا حزب الله. إنها فرصة لإكمال الحديث معهم عن النتائج السياسية وتداعيات ما بعد الحرب ومدى وقعها وصداها على الجبهة الداخلية لبلد الأرز. من ذلك ولأول مرة نستشف إطاراً لوضع مُقَلَّق: أعضاء حزب الله يدركون ويعون جيداً أنّ عليهم أن يُثبتوا للبنانيين قبل قوات الأوان قدرتهم على إعادة تحريك البلد من جديد وتعويض الأضرار التي لحقت به. القيام بدور رئيسي في عملية إعادة الإعمار ليس فقط من أجل حياة الناس بل أيضاً من أجل المحافظة على بقاء حزب الله نفسه.

"هناك - يحدثنا ضيوفنا - من يُزاد على عملية إعادة الإعمار ويستغلها لمحاولة إرساء الأسس لتحجيمنا". نحن نفهم ونُدرك أنّ المقصود من «الآخرين» هي تلك القوى المرتبطة برئيس الوزراء الذي أغدقته السعودية وأوروبا بالأموال الطائلة بمباركة الولايات المتحدة الأمريكية. «هذه الأموال الطائلة والأعمال اللبنانية» ليست إلاّ الطرف الثاني والوجه الآخر للميدالية، فالطرف الأول والأساسي

هو الأمم المتحدة وعلى رأسها إسرائيل والولايات المتحدة الذين يأملون في قلب النتائج والمكتسبات التي حققتها المقاومة اللبنانية في الحرب الأخيرة. إن أداة كهذه تُمارس كل هذا بشكل طوعي وعلني تُعرض المنظمات غير الحكومية إلى خطر القيام بدور أساسي في تحويل الموارد والمساعدات لصالح الحكومة المركزية التي أثبتت عجزها وفشلها في الدفاع عن لبنان والتصدي للعدوان الإسرائيلي وهي أي الحكومة تحاول اليوم أن تجمع أكبر قدر من المكاسب والأموال مستغلة بذلك عملية إعادة الإعمار.

إنه تنسيق ذو رائحة سياسية يُعطي جواباً معقولاً ومقبولاً على تزايد وجود هذه المنظمات غير الحكومية في لبنان. فيما يتعلق بإيطاليا، فقد تضاعف كثيراً عدد هذه المنظمات غير الحكومية في الأسابيع الأخيرة: كان العدد أقل من عشرة منظمات ليصبح عددها الآن أكثر من خمسين منظمة.

خلال حفلة الغداء، نشاهد بعض التناقضات الظريفة لأعضاء ومنتظمي حزب الله. فعلاً، خلال تجهيز الطاولة للغداء وضع عليها النادل علب الكوكا كولا وغيرها من المشروبات. لقد بدأ البعض منا بفتحها لكن قاسم تدخل وأجبرنا على إحترام مقاطعة هذه المشروبات لأنها مقاطعة عادلة وذات معنى خاصة في هذه الفترة. لقد تفاجأ البعض من وفدنا من هذا التصرف لقاسم، لكن المفاجأة

الكبرى كانت عندما شاهدنا الدهشة والإستغراب في أعين أعضاء حزب الله.

العودة الى بيروت تحتم علينا المرور مرة أخرى عبر طرق متقطعة ومغلقة بسبب الجسور المهدمة وكذلك رؤية يافطات وأعلام حزب الله وشعارات «النصر الإلهي» التي أصبحت لنا أشياء اعتيادية. نعود هذه المرة الى الفندق الساعة الخامسة عصراً، وبذلك سيكون عندنا متسع من الوقت للراحة وتجهيز أنفسنا للذهاب إلى حفلة عشاء أعدها على شرفنا الحزب الشيوعي اللبناني. الرغبة في مشاهدة وإستكشاف المزيد، قوية جداً، لذلك لن تكون لنا استراحة بل جولة صغيرة للتبضع وشراء بعض الحاجات من الشوارع الرئيسية للعاصمة. جولتنا هذه في العاصمة تثبت لنا أنّ بيروت مدينة تحاول أن تعود إلى حياتها العادية الطبيعية والمعمولة أحياناً من أشياء سطحية ومن الإستماتة للتبضع والحماس لشراء اللوازم والحاجات والألماس والزخارف. بدأت الشوارع والمحلات والدكاكين تنقص بالناس لكن شعور عدم الإستقرار لا يزال يسيطر على الكثير منهم: يمكن فهم ذلك من التنزيلات الكثيرة والأسعار المنخفضة غير المعتادة وقلة البهجة والسرور التي كانت تُشاهد على وجوه اللبنانيين.

في الساعة الثامنة والنصف مساءً وصل إلى الفندق ضيوفنا من

الحزب الشيوعي اللبناني. حفلة العشاء ستكون في مطعم جميل وأنيق في وسط بيروت في حي سوليدار وهو يعود لإسم مجموعة شركات مقاوله يعود معظمها لسعوديين قامت بعملية إعادة إعمار قسم كبير من بيروت في عهد حكومة الحريري. كانت عملية إعادة إعمار مُركّزة ومبنية على منطق وأساس الريح والمكسب والمضاربة التي خلال عشر سنوات من الإعمار غيرت سلباً وجه بيروت وشوهدت جمال لؤلؤة الشرق الأوسط. على كل حال المطعم يوجد في الطابق الأخير لبنانية من ستة عشر طابقاً على شرفة تُطل على منظر جميل ورائع للمدينة.

نحاول أن ننسى لبعض الوقت المناظر المؤلمة التي شاهدناها في هذه الأيام لنتمتع بهذا المنظر الخلاب. المطعم مليء بالزبائن، وتوجد الموسيقى، لكن يبدو أنّ البشاشة والبهجة اللتين تتميز بهما ليالي بيروت أيضاً هنا معدومتان. خلال العشاء، يعود الجو إلى جديته ويبدأ أمين الحزب الشيوعي بتحليل دقيق للوضع الداخلي اللبناني. يحدثنا خالد حداده عن إستئناف نشاطات مجموعة بريستول (نسبة الى اسم الفندق الذي كانت تجتمع فيه القوى المناهضة للوجود السوري في لبنان). هذا النشاط الذي يُقلق الحزب الشيوعي اللبناني خاصة وأنه يهدف الى نزع سلاح حزب الله وتحجيمه. كما يُطلعنا أمين الحزب الشيوعي اللبناني على

التطورات على الجبهة الأخرى وعن العلاقة مع العماد ميشيل عون والدور الذي يلعبه.

يُعتبر العماد ميشيل عون أحد الزعماء الرئيسيين للمسيحيين اللبنانيين، وقد عاد الى لبنان قبل ما يقارب السنة بعد أن قضى مدة طويلة في المنفى في فرنسا، وانضم فجأة الى تحالف القوى التقدمية مُقدماً نفسه كمرشح لرئاسة الجمهورية التي تنتهي مدتها العام القادم. هذا التحالف الذي يضم بالإضافة الى العماد عون قوى سنية وحزب الله وكذلك الحزب الشيوعي اللبناني. ومن النقاط المهمة في برنامجه: نهوض وانبعاث لبنان من جديد وإصلاح انتخابي يضع حداً للإمتهازات التي تتيح وتترك مواقع قيادية لأناس مثل وليد جنبلاط زعيم الأقلية الدرزية في لبنان. ويُقدم العماد عون نفسه كاستمرار لسياسة الرئيس الحالي، بدءاً من الحوار مع الجارة سوريا. لو عدنا للوراء عشرين سنة نجد أن السيناريو قد انقلب تماماً. والخلاصة أن لبنان معمول منذ القدم من تحالفات غير متوقعة وانشقاقات مفاجئة ومدهشة.

انتهى العشاء ولا بدّ من عمل جولة في ساحة رياض الصلح مركز الحركة والحياة الليلية البيروتية. لكن المنظر موحش والشوارع شبه خالية ومُقفرة.



في مخيم شاتيلا كي لا ننسى

تم تخصيص صباح يوم الجمعة للقاء القوى السياسية الفلسطينية ولزيارة مخيم شاتيلا. بعد ذلك، وفي العصر ستقام مظاهرة لإحياء ذكرى المجزرة التي ارتكبت قبل اربع وعشرين سنة أي عام 1982 بتواطؤ ومشاركة الجيش الإسرائيلي الذي كان يحتل آنذاك قسماً كبيراً من الأراضي اللبنانية والتي أدت إلى إبادة جماعية لأكثر من ألفي فلسطيني معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ. إنه نفس المخطط الدموي الذي يربط تلك الجريمة بالجرائم الحديثة كمجزرة قانا.

اللقاء مع الأحزاب والمنظمات الفلسطينية يتم في مارالياس وهو مخيم صغير للاجئين الفلسطينيين الذين معظمهم من الفلسطينيين المسيحيين. نصحنا الى الدور الأول من البناية حيث يتواجد بيت أطفال الصمود. يكون عادة مليء بالأطفال، لكن هذا الصباح ينتظرنا فيه ممثلون عن المنظمات الملتزمة والمعترفة بمنظمة التحرير الفلسطينية. أمامنا ثلاثة رجال من ثلاث منظمات رئيسية تمثل تاريخ كفاح الشعب الفلسطيني: حركة فتح، الجبهة الشعبية

لتحرير فلسطين والجهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. بينما نُصغي لهم، نتساءل هل لهذه القوى ذات النزعة العلمانية القوية مستقبل في منطقة الشرق الأوسط الذي أصبح الآن مسرحاً "لصدام حضارات" بين أتباع الإمبراطورية الأمريكية وبين الحركات ذات التوجه الديني أي الإسلامية التي تُمثّل اليوم المعارضة الوحيدة المعترف بها والنقيض الوحيد للمخططات الأمريكية. ربما كانت كلماتهم تُعجّ بالأيديولوجية لكن بالتأكيد كان تحليلاً مهماً.

يبدأ الحديث بشرح وتحليل ظاهرة حزب الله. في هذا الخصوص، يعتقد ممثل حركة فتح أنّ قوة حزب الله تأتي من "مشروع جدي وشفاف، وتنظيم قوي، وكذلك قاعدة شعبية مُتأصلة وذات جذور قوية". إنّها شروط ومُقومات خيالية لأي قوة سياسية، نجدها فقط في كتب الأحلام. ثمّ ينتقل الحديث عن الدولة العبرية، فكان رأي القيادي في فتح واضحاً وهو نفس رأي الرئيس ياسر عرفات: "إسرائيل ليست بلداً يسقط تلقائياً، انها بلد قوي لكن يُمكن هزيمتها. فهي قوية لكنها لم تستطع أن تنتزع انتصاراً ضد المقاومة اللبنانية".

يبدو أنّ المقاومة اللبنانية أعطت معنى وأملاً أيضاً للمقاومة الفلسطينية. غير أنّ هؤلاء الرجال الذين يجلسون أمامنا يحملون في جمعيتهم تجارب طويلة ومريرة وواقعتهم تُؤكّد ذلك. الحُكم على

الدول العربية "الشقيقة" كان واضحا وقويا: " لقد برهنت هذه الأنظمة العربية خلال الحرب وعلى أرض الواقع على أنها حليفة لإسرائيل وبهذه الطريقة ستتبخر في الهواء ديكتاتورياتهم وتصبح بفضل تحالفهم مع أمريكا أنظمة ديموقراطية. وهذا ما حصل في أمريكا اللاتينية". مُحصلة القول الكيل بمكيالين ووزنين.

غير أن المسؤولين الفلسطينيين لم يستطيعوا تجنّب الحديث عن تبعيات وتداعيات أحداث السنة الأخيرة على القضية الفلسطينية. لم يكن أدنى شك عند المسؤول في الجبهة الشعبية: " سيكون لإنصار المقاومة اللبنانية نتائج على القضية الفلسطينية. يجب علينا أن لا نسمح لعدونا الإسرائيلي أن يُدمّر وحدتنا". لكننا الآن موجودون في لبنان لذلك نسألهم عن الظروف المعيشية للاجئين الفلسطينيين في لبنان وعن العلاقة مع الحكومة المركزية اللبنانية. الإجابة هذه المرة كانت واحدة: "العلاقات تتحسن ولكن ببطء. لقد وافقت الحكومة بعد مضي أكثر من عشرين سنة على إقامة تمثيل لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان واليوم لنا سفير في لبنان الذي يُعتبر كمرجعية لكل الفلسطينيين المتواجدين هنا. في السابق كان ممنوعا على الفلسطينيين إدخال مواد بناء داخل المخيمات خاصة مخيمات الجنوب أمّا اليوم فإنه مسموح إدخال هذه المواد نتيجة الدمار الذي أحدثته الحرب الأخيرة ولكن بعد الحصول على تصريح إجباري".

غير أنّ المشكلة الرئيسية تبقى تلك التي تتعلق بخمسة عشر ألف فلسطيني الذين يعيشون في طوق مدينة بيروت بدون وثائق. الآن - يُضيف المسؤولون الفلسطينيون الثلاثة - "بإمكانهم الحصول على هويات عبر السفير الفلسطيني في لبنان". على أيّ حال يبقى الجانب الإيجابي وهو العلاقة مع وزير العمل الذي يشغل منصبه وزير مقرب من حزب الله والذي سمح قبل عدة أشهر من اندلاع الحرب للفلسطينيين الذين يحملون وثائق بالعمل في لبنان، لكن ذلك بقي حبراً على ورق. حتى هذه الأيام يُمنع على الفلسطينيين المقيمين في لبنان مُزاولة أربعين مهنة. من بين هذه الأشياء الجائرة إضافة الى عدم إمكانية العمل أيضاً ليس لهم الحق في تملك البيوت. القانون اللبناني يمنع انتقال الملكية لورثة الأموات الفلسطينيين. " يقول ممثل الجبهة الديمقراطية - لقد حصلنا من - فؤاد السنيورة - الموافقة على تسجيل البيت في السجل العقاري ومصالحة الأملاك حتى بعد مُضي وقت طويل، وهذه خطوة مهمة جداً.... لكنها لا تكفي". كل هذا يحدث رغم أنّ العديد من الوزراء يعتبرون هذا القانون قانوناً عنصرياً.

لكن الحديث يعود من جديد الى أرضهم فلسطين. "اليوم الشعب الفلسطيني - يُضيف مروان مسؤول الجبهة الديمقراطية - يعيش في ظروف صعبة ومُقلقة، يشعر شعبنا بأنه تُركَ وحيداً أمام جبروت

وعنجهية العدو الإسرائيلي. مشروع إقامة دولة فلسطينية الآن في خطر كبير". وفي الختام يُوجه المسؤولون الثلاثة نداءً مُشتركا: لا تتركونا وحدنا لأنّ العواقب ستكون وخيمة ليس فقط على منظمة التحرير وعلى الفلسطينيين.

تمضي عدة دقائق وإذا بِمُحدّثينا يتحولون الى أشخاص آخرين. هذه المرة، جاء دور القوى التي لا تعترف بمنظمة التحرير. هذه مجموعات فلسطينية نشأت من عمليات إنفصال عن منظمات أخرى بعضها صغيرة العدد والبعض الآخر تمخّض عن مرحلة تاريخية معينة تاركا أثرا كبيرا. في الماضي حدثت صدمات مسلحة وعنيفة بين هذه المنظمات وبين منظمة التحرير، لكن الجو الآن يختلف والظروف تغيرت وعندما يلتقوا في مار الياس تصافحوا وتعانقوا بحرارة على أن يلتقوا عصراً بمناسبة المظاهرة التي ستقام في مخيم شتيلان. إنّ قراءة وتوقعات القوى غير المشاركة في م.ت.ف. أكثر تشاؤماً. على سبيل المثال، إنّ ما يُسمى بـ "الجديد" أي وجود سفير فلسطيني معترف به في لبنان تمّ تحجيمه والتقليل من أهميته ويعتبرونه مجرد "تصريح لفتح مكتب تمثيل" فقط لا غير. يقولون ذلك دون حماس أو نشوة، لكن يُمكننا الفهم والإستشفاف أنه رغم كل شيء فإنهم يعتبرون هذا المكتب كمرجعية. فيما يخص الوضع الفلسطيني في لبنان فقد أكدوا على الأشياء المعلومة سابقا: "المشكلة هي الحق في

الملكية والعمل: لا نعتقد أنّ هذه الحكومة اللبنانية العنصرية ستضع حداً لهذا التمييز العنصري. وعليه فإننا كلما حاولنا التحدث عن هذه الأمور وإذا بالأولويات تصبح أشياء أخرى كالحرب اللبنانية التي وضعت القضية الفلسطينية في الصف الثاني".

نغادر مخيم مار الياس لنتوجه الى مقر رابطة الصحافيين اللبنانيين في بيروت حيث تعقد اللجنة "كي لا ننسى صبرا وشاتيلا" مؤتمرًا صحفياً. بحضور رئيس رابطة الصحافيين ومدير جريدة السفير حيث يشرح ستيفانو كياريني الأسباب التي دعت هذه السنة الى تسمية المهمة الى لبنان "من صبرا وشاتيلا الى قانا": لا للمجازر الإسرائيلية". يُعقد المؤتمر الصحفي كل سنة، لكن الجديد هذه المرة، يتمثل بهيبة وعظمة كلمة رئيس رابطة الصحافيين الذي نادى وأكد على قيمة المقاومة "إنها تُعزز وتُقوي أيضا الروح الوطنية لشعبنا". بعد انتهاء المؤتمر الصحفي وقبل ذهابنا الى مخيم شاتيلا التقينا بالممثل الجديد لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان عباس زكي. كان اللقاء رسمياً وقصيراً حتى لا نأخذ من وقته ولننتج المجال للفلسطينيين الذين يملؤون صالة الإنتظار. "الخبر" الحقيقي والمهم هو تواجد عباس زكي في لبنان وقدرة هذا الرجل على أن يُصبح مرجعيةً قويةً في العلاقة بين مواطنيه والدولة اللبنانية. فعباس زكي له تاريخه المهم وهو الآن مسؤول العلاقات الخارجية في حركة فتح.

قبل بدء المظاهرة نتناول طعام الغداء مع أمهات وزوجات ضحايا مجزرة صبرا وشتيلا. ليس عندنا متسع من الوقت لكن الأكل شهى وطاولة الطعام غنية ومنوعة فمن الرز والخضار الى الفواكه. تقوم هذه النساء بعرض صور أزواجهن ومنهن من لم تعثر حتى الآن على جثث أزواجهن. على جدران الغرفة الصغيرة والجميلة تنتشر الرسوم والصور التي رسمها الأطفال الذين يترددون على جمعية الصمود. الجميع يتحدث عن الحرب، الأطفال الفلسطينيون يرسمون الدبابات وزخات الصواريخ وأعلام دولة فلسطين التي ترفرف كأنهم لم يروها في الماضي. لا تتظهر على وجوههم روح الطمأنينة فأقلامهم وألوانهم تحكي ذلك.

حان موعد المظاهرة في شاتيلا. سرعان ما نلاحظ عدم وجود الفوضى المعتادة في المخيم. والإعتبار الآخر أن عدة آلاف من السوريين من الرجال والنساء من الطبقة الكادحة يعيشون منذ سنوات طويلة داخل وخارج مخيم اللاجئين يستغلهم اللبنانيون للقيام بالأعمال المهينة والمزرية. لذا، بعد انسحاب الجيش السوري وبعد اندلاع الحرب الأخيرة فضّل الكثير من هؤلاء مغادرة لبنان على أن يبقوا فيه ويكونوا كبش الفداء. يُسيطر على المخيم نفس الإحباط نتيجة انعدام البنية التحتية وفقدان الأمل في المستقبل في ظل هذا الوضع وهذه الظروف.

توقفنا امرأة على مدخل بيتها وتحدثنا عن ابنها الذي أنهى
دراسته لكنه غير قادر أن يجد عملاً وعن زوجها المريض في القلب
العاجز عن معالجة نفسه.

لم ينقطع الحديث في المخيم عن المقاومة التي استيقظت
في نفوس الناس وأعدت الأمل اليهم من جديد حتى وان كان
التشاؤم لا يزال يُستشَفُّ من كلام إحدى الفتيات: "الآن، الجميع
متحمسون للمقاومة والكل يُعظِّمها ويُمجِّدها، غير أن هذا الجو
سينتهي، عندئذ ينبغي إيجاد ممثل جديد للشر في لبنان، ونحن
هنا جاهزون لتكون الهدف".

في الساعة الرابعة نتوجه الى مكان انطلاق المظاهرة. لا
نشاهد أناساً كثيرين وخاصة أعلام القوى السياسية. لكن ممثلو
المخيمات قد وصلوا. اليافطة الإيطالية كانت اكثر اليافطات حظاً
في التصوير، ربما وجود أناس في العالم الغربي قادرين على التعبير
عن سخطهم اتجاه مآسي الشعب الفلسطيني والظلم الذي يعاني
منه يجلب الإنتباه.

تبدأ المظاهرة من الساحة التي تتواجد فيها السفارة الكويتية
التي تقع في البناية والتي من عليها كان أربيل شارون قبل أربع
وعشرين سنة يشرف ويدير المجزرة التي استمرت سبعين ساعة في
صبرا وشتيلا على يد حزب الكتائب اللبناني.

الموكب يتجه نحو المقبرة الجماعية وفي مقدمته اليافطة الإيطالية واللجنة الإيطالية. وخلفهم بقليل توجد القيادات الفلسطينية واللبنانية في صفوف مرصوصة. من بينهم عزمي بشارة النائب العربي في الكنيست الإسرائيلي. لا شك أن تواجده في مظاهرة تشارك فيها قيادات من حزب الله لن يمر دون اهتمام وانتباه. عندما وصلنا الى المكان الذي دُفن فيه مئات الضحايا الذين قتلوا في المجزرة، نكتشف أن الكثيرين انسحبوا من الموكب لينتظرونا امام الضريح الذي بني للتذكير بالمجزرة. ربما الحرب الأخيرة والتوتر الحالي اضطر المنظمات والأحزاب الفلسطينية بالسير من منطقة الغبيري. لقد تم الإتفاق بعد عناء وجدال شديدين على من سيلقي كلمة خلال المظاهرة واستقر الأمر على رئيس بلدية الغبيري أبو سعيد الخنسا وممثل منظمة التحرير ومسؤولي الوفدين الإيطالي والفرنسي.

وفي المساء، نختم يومنا بحفلة عشاء أقامها على شرفنا مدير جريدة السفير. كانت حفلة العشاء في مطعم فاخر، فبالإضافة الى ضيوف مدير جريدة السفير التي تُعتبر أكبر الجرائد العربية في لبنان كان يستضيف حفلة زواج. لذا، كان يسود المطعم جو من الطرب والفرح والموسيقى والرقص وهو الجو الذي اعتدنا ان نراه داخل المطاعم اللبنانية. كان من بين ضيوف طلال سلمان بعض

الصحافيين اللبنانيين الذين اعطوا تفسيراتهم وتحليلاتهم لما بعد الحرب. الجميع متفقون على نقطة: إنّ مرحلة الجمود والاحركة تُشرف على النهاية، وأنّ مشاكل جديدة تلوح في الأفق.

الفصل

ليس فقط حزب الله في المقاومة

نشارف على اليوم الأخير لنا في لبنان. كان من المفروض أن يكون هذا اليوم دون التزامات لنقوم بزيارة للمدينة، لكن رغم الجهود الكبيرة التي بُذلت إلا أن بعض المواعيد تأجلت. لهذا سنغادر صباحاً متجهين إلى صيدا للقاء رئيس البلدية. لقد تعودنا بعد هذه الأيام على هذه الجسور المدمرة وإن كان هذا الجسر صغير والطريق قصيرة. رئيس بلدية صيدا عبد الرحمن البزري يستقبلنا بترحيب ويستضيفنا في قاعة المؤتمرات داخل البلدية.

خلال السنوات الماضية تمت كل لقاءاتنا مع المواطن الأول لمدينة صيدا في نفس المكان. غير أن هذه المرة نلاحظ أن شيئاً ما غير طبيعي وأن خلاً في القاعة. فمكبرات الصوت عاطلة والبساط الذي كان يلمع مليء بالبقع. كان دور رئيس البلدية أن يشرح لنا هذا لأن هذا المكان استضاف خلال أسابيع الحرب مئات الأشخاص من النازحين والهاربين من الحرب. لقد بلغ مجموع اللبنانيين الذين نزحوا من مناطقهم وتركوا بيوتهم خلال الحرب ما يقارب المليون شخص من بين عدد السكان البالغ أربعة ملايين نسمة تقريباً. لو

حصل هذا الكمّ الهائل من النزوح في بلد آخر لوضعه في أزمة خانقة ومأزق حقيقي، غير أن هذا لم يحصل في لبنان بل على العكس أدّى إلى ردة فعل تضامنية كبيرة أدهشت اللبنانيين أنفسهم.

من كان يستطيع فتح أبواب بيته للنازحين. الإدارات المحلية كبلدية صيدا وضعت كل ممتلكاتها تحت تصرف النازحين. لقد شارك في هذا السباق التضامني أيضا الفلسطينيون كمخيم اللاجئين الموجود على أبواب صيدا الذي يُعتبر أكبر المخيمات في لبنان، حيث استضاف مئات العائلات اللبنانية. هذا التضامن كما يؤكد عليه رئيس البلدية يفتح سيناريو جديد في العلاقات بين الشعبين.

يُذكر أن مدينة صيدا كانت دائما سبّاقة في مبادراتها التضامنية والسياسية. بالضبط هنا، خلال السبعينات توحد نضال حركة الصيادين اللبنانيين مع الفلسطينيين التقدميين الذين كانوا يطالبون بحقوقهم وبالديموقراطية. وكان رمز هذا النضال معروف سعد النقابي اللبناني الذي قُتل في بداية الحرب الأهلية لأنه كان أيضا مع الحوار مع الفلسطينيين.

كانت زيارتنا لصيدا قصيرة وسريعة وحال إنتهاء لقائنا مع رئيس البلدية سرعان ما عدنا الى بيروت. كان في إنتظارنا أمين الحزب الشيوعي اللبناني. يُعقد لقاءنا في المقر الرئيسي للحزب الشيوعي الذي تشرف على حمايته وامنه مجموعة من الشبان وهم الذين

أشاروا إلينا عن مكان الإجتماع. حفظ النظام والأمن في هذه الأيام مهم جداً ويُستشف من الوضع اللبناني الحالي، حيث لا يشعر أحد بالأمان في أي مكان. في إحدى الصالات في الطابق الرابع كان في انتظارنا أمين الحزب الشيوعي حيث تحدثنا عن حاضر بلد الأرز. يؤكد خالد حداده على أنّ الحرب على لبنان بدأت بغطاء امريكي كامل: "القرار كان أمريكياً. إسرائيل كانت فقط مجرد «أداة»". قُتل أكثر من الف وخمسمائة مدني، ودُمرت قُرى، ودُمر الإقتصاد: هذا هو محصلة ثلاثة وثلاثين يوماً من القنابل. يجيب خالد حداد دون تردد على سؤال يتعلق بالجنديين الإسرائيليين الأسيرين: "كانت مجرد عملية عسكرية" ويؤكد حتى وإن لا يملك إثباتاً أنّ الحرب كانت مبرمجة منذ وقت طويل أي حين صرحت كوندوليزا رايس قبل سنة أنّ صبرها على هذه الحكومة قد نفذ لأنها تماطل وتعارض تنفيذ القرار رقم 1559 الذي يعني نزع سلاح المقاومة. في تلك المناسبة صرحت وزيرة الخارجية الأمريكية أنّ المجتمع الدولي سيقوم بأعمال تهدف إلى تطبيق القرار 1559.

بالنسبة الى الشيوعيين اللبنانيين قراءة تلك التصريحات كانت واضحة: تكليف إسرائيل بتطبيق القرار 1559. الدولة التي لم تطبق أبداً اي قرار صادر عن الأمم المتحدة. فقط خلال السنوات الأخيرة من عام 2000 الى 2003 بعد انسحابها من الجنوب انتهكت اسرائيل

الحدود مع لبنان 2400 مرة. وهذا تم التأكيد عليه ليس من قبل المقاومة اللبنانية بل من الأمم المتحدة في تصريح لكوفي عنان نفسه.

"قبل شهرين بالضبط من اندلاع الحرب - يذكر أمين الحزب الشيوعي اللبناني - قامت إسرائيل بانتهاكين اثنين خطيرين: إغتالت راع لبناني داخل الأراضي اللبنانية واعتقلت صيادا لبنانياً داخل المياه الإقليمية اللبنانية". كان رد المجتمع الدولي على ذلك بالصمت..... إضافة الى ذلك، تبقى قضيتان اثنتان مفتوحتان دون حل: مزارع شبعا المحتلة والأسير سمير القنطار المعتقل في إسرائيل منذ إثنين وعشرين عاماً.

عوامل وظروف أخرى تُؤكد على أنّ الحرب كانت مبرمجة ومقررة منذ وقت طويل. بداية من تصريحات أولمرت رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي أعلن بعد الساعات الأولى من أسر الجنديين عن تصميمه على «إستئصال» حزب الله دون أن يتطرق لسألة الجنديين. " - يُؤكد خالد حداد - على كلمة " «إستئصال» وليس «نزع سلاح» ."

في الواقع - من وجهة نظر الشيوعيين اللبنانيين - إنّ الهدف الحقيقي للولايات المتحدة خاصةً بعد فشلها في العراق هو السيطرة على لبنان من أجل الإنطلاق من هنا بمشروع «شرق أوسط جديد». إنّ مسألة إحترام قرارات الأمم المتحدة في هذه المنطقة موضوع ملموس جداً. فشيوعيو بلد الأرز جزء من هذا الإحساس الملموس. لكن أمين

الحزب يُصرّ على ضرورة تطبيق كل القرارات الدولية. بدءاً من تلك المتعلقة بقضية اللاجئين الفلسطينيين. يعيش في لبنان منذ ما يقارب الخمسين عاماً أكثر من 400 ألف لاجيء بالرغم من صدور قرارات واضحة ودقيقة تنص على «حق العودة» إلى أراضي أجدادهم.

الإعتبار المهم في هذا اللقاء الطويل في مقر الحزب الشيوعي كان خبر المشاركة الفعالة للشيوعيين اللبنانيين في المقاومة الذي تمّ التعميم عليه وتجاهله من قبل وسائل الإعلام الإيطالية. خلال الثلاثة وثلاثين يوماً من المعارك قدّم الشيوعيون دعماً ملموساً للمقاومة وشاركوا في عدة معارك في الجنوب والبقاع. وسقط منهم ثلاثة عشر شهيداً. ثلاثة عشر شاباً سقطوا خلال المعارك ضد المعتدي الإسرائيلي. يُضيف خالد حداد أنّ هذه المساهمة لها جذورها العميقة: "بدأت المقاومة في بلد الأرز في عام 1988⁽¹⁾ بقرار من الحزب الشيوعي اللبناني. فقد صاغ أمين الحزب الشيوعي اللبناني بيان ولادة جبهة المقاومة الشعبية اللبنانية وبعد ساعات قليلة من إعلانه تمت أول عملية للمقاومة ضد الإحتلال الإسرائيلي في بيروت. كان ذلك في السادس عشر من أيلول (سبتمبر). ويُضيف خالد حداد - كل هذا كان قد وقع قبل ولادة حزب الله ودخوله

1- إعلان جبهة المقاومة اللبنانية تم بتاريخ 16/9/1982 من على درج منزل كمال جنبلاط في بيروت الغربية (الناشر).

السيناريو اللبناني. دفع الشيوعيون اللبنانيون ثمناً باهظاً للمقاومة، فقد سقط لنا مئات الشهداء، وتحت قيادتنا - يضيف خالد حدادة - تمّ تحرير صيدا وبيروت والنبطية وجزء كبير من الأراضي المحتلة عام 1981. فقط بعد عام 1988 جاء حزب الله⁽¹⁾.

بعد هذه الكلمات وهذا التصريح يأتي السؤال عن طبيعة العلاقات بين الشيوعيين والحركة الشيعية. لا يُخفي أمين الحزب أنّه في السنوات الماضية كانت العلاقات بينهما مُتوترة. حتى أنّها أدّت الى انشقاق داخلي. غير أنّ تلك الحقبة وتلك الأيام ولّت وانتهت، واليوم تتفق القوتان اللبنانيتان على المسائل الجوهرية التي تُخصّص مستقبل لبنان.

ويذكر أمين الحزب الشيوعي أنّه خلال المظاهرات الحاشدة التي تلت موت الحريري كان يجلس قرب الشيخ حسن نصر الله. لكن أسئلتنا بدأت تأخذ الطابع الأوروبي ووجهة النظر الأوروبية التي حاول أمين الحزب الشيوعي تفاديها. "عندما نتحدث كوندوليزا رايس عن «شرق أوسط جديد» نفهم من ذلك أنّ هذا يعني القضاء على كل ما هو موجود في عالمنا. يعني ذلك محو هويتنا الوطنية ووضع كلّ شيء في خدمة الولايات المتحدة وإسرائيل. ماذا يعني تدمير

1- لقاء حزب الله سنة 1982 وبدء عملياته الجهادية مطلع سنة 1982 واعلان عن الحزب السياسي سنة 1985 (الناشر).

الدول الحالية وإقامة أخرى جديدة، يُمكننا فهم وإدراك ذلك مما حصل في أفغانستان والعراق. من أجل تحقيق هذا المشروع، لأبد من إحداث فوضى كبيرة وخلق حالة عدم إستقرار قوية في المنطقة. لذا ينبغي علينا كيسار، مواجهة هذا المخطط لمصلحة الجميع ولخير الشرق الأوسط. لعمل ذلك، يجب علينا أن نتوحد مع كل قوى المقاومة وكل الأطراف التي لها مصلحة في التصدي لهذا المشروع. يجب عمل ذلك من على الأرض وكل من موقعه".

بعد هذا - يقول أمين الحزب - علينا أن نُميز بين القوى ذات التطلع الإسلامي والمجموعات الإرهابية والمتطرفة كالقاعدة التي لا علاقة لها بنا ولا يربطنا بها أي رابط. توجد إمكانية كبيرة للتوافق مع التيارات الإسلامية على قضايا متعددة". حزب الله - حسب رأي أمين الحزب الشيعي - يملك قدرات عسكرية هائلة ومقدرة كبيرة على إدارة المجتمع. لكنه لا يطرح مشروعاً سياسياً واقتصادياً لمستقبل المنطقة. لهذا، حسب هذه التحاليل، فإنَّ مهمّة اليسار هي "وضع الأسس لمشروع قادر على تقديم إجابات للمستقبل". بدءاً برفض المشاريع والأهداف الأمريكية وإقامة الدولة الديمقراطية التي ستعمل على إعادة توزيع الخيرات والموارد. الحوار والاتفاق حول هذه النقاط مع القوى الدينية ممكن حتى وإن كان - يعترف أمين الحزب الشيعي بأنّ - كل هذا ليس سهلاً ولا محسوماً".

وفي ختام اللقاء، أيضا الحزب الشيوعي اللبناني يُحذر من خطر "تعديل القرار رقم 1701 أو إعطاء تفسير مغاير له من أجل تضييع وقلب النتائج التي حققتها المقاومة". يختتم قائلاً: "أيضا أوروبا استفادت من معركتنا". في البداية كانت مسودة القرار تتكلم عن استخدام حلف الناتو (الأطلسي) وبعدها تحدث القرار عن أوروبا واليونيفيل. وهذا حصل بفضل من قاوم الجيش الإسرائيلي بشراسة وبسالة.

اليوم، هناك من يُحاول تغيير القرار رقم 1701 لإدخال الفصل السابع فيه من وثيقة الأمم المتحدة وبكلمات أخرى القيام بتدخل عسكري: "هذه مصيدة للدول الأوروبية. لذا فإن لبنان يرفض رفضاً قاطعاً هذه الفرضية وبناء على ذلك فإننا نطالب بعدم تغيير طبيعة مهمة اليونيفيل". هكذا ينتهي لقائنا الطويل مع الحزب الشيوعي ونغادر مقره بتوديعنا لشبيبة الحزب الذين يرتدون القمصان المرسوم عليها صورة «تشي جيفارا».

ينبغي علينا أن نفكر ونتأمل بالتحليل الذي قدمه لنا أمين الحزب الشيوعي. بينما كنا في طريقنا للفندق شاهدنا ملصقاً كبيراً لمقتل الحريري الذي يذكرنا بتلك الحادثة التي قلبت البلد وهزّت مضاجعه. وأيضاً، ملصقات أخرى تُذكر بمقتل الرئيس الجميل الذي قُتل قبل ساعات من مجزرة صبرا وشتيلا عام 1982، وصوراً

أُخرى للعماد عون ولزعماء حركة أمل. لقد شاهدنا في هذه الأيام أكثر من «لبنان» وكل واحد مُختلف عن الآخر.

في العصر ستقام مُظاهرة نظمها الحزب الشيوعي اللبناني في ذكرى إنطلاقة المقاومة: عدة آلاف من الأشخاص، شبّان كثيرون وإجراءات أمنية قوية يقوم بها الجيش اللبناني.

نختتم إقامتنا في بلد الأرز بجو من المتعة والانشراح بمأدبة عشاء يقيمها على شرفنا رئيس بلدية الغبيري. في الفجر تغادر لبنان إلى إيطاليا على متن طائرة شركة طيران الشرق الأوسط. نترك لبنان بعد أن أنهينا معاملاتنا بسرعة كبيرة في المطار لكونه خالياً من المسافرين. بينما كانت طائرة ايرباص تُحلق فوق بيروت التي بدأت تستيقظ من نومها، نُفلق أعيننا ونتخيل الدمار والخراب الذي لحق بيروت والخيام وبنات جبيل وبعلمك..... لنفتحها من جديد وإذا نجد أنفسنا غارقين في اللون الأزرق.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

المحتويات

5 المقدمة

الفصل الأول

11 في بيروت ما بعد الحرب

الفصل الثاني

23 في جحيم حارة حريك

الفصل الثالث

39 بين أنقاض معتقل الخيام ثم إلى قرية بنت جبيل

الفصل الرابع

55 قررنا الذهاب للجنة وسلاحنا معنا

الفصل الخامس

69 في مخيم شاتيلا كي لا ننسى

الفصل السادس

79 ليس فقط حزب الله في المقاومة